مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

تقدم العدد الأول من مكتبة المسرح العالمي

"ترجمة كاملة لمجموعة من روائع أشهر كتاب المسرح العالمي"

الدراما الخالدة لأديب ألمانيا الكبير

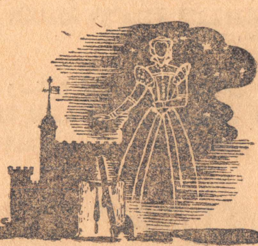
فردريك شيللر

ماري ستيوارت



فردريك شيللر:

مارى ستيوارت



MARIE STUART

PAR

FREDERIC SCHILLER

الثمن : ١٢ قرشا

مجموعة كتـــابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها سبعة وستون كتـــابا ،ومجلدان خارج السلسلة يحتـــويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عـــادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليمـــا ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـــوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

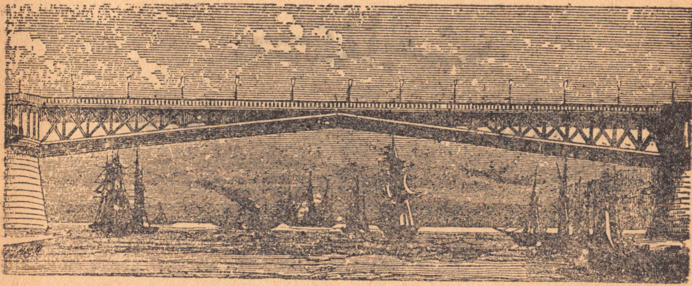
الكتاب السابع والستون

مارى ستيوارت

ترجمة : محمود شوقى

الادارة : عمارة الجندول — ١٤ شارع ٢٦ يوليو — بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦



عزيزى القارىء ...

قبل ان تطالع هــذه المسرحية الرائعــة ذات الاطار التاريخى ، أود أن أهيىء لك « الجو » المناسب الذى يتيح لك أن تستمتع بها على الوجه الأكمل ، ولن يتسنى لك ذلك الا اذا ألممت بقصــة حياة بطلتها الملكة التعســة « مارى ستيوارت » ، وبالأحــداث العجيبة التى صنعت تاريخها ، وألقت ظلالها على شخصيتها ، بحيث امتزجت فيها أغـرب المتناقضات ، وتضاربت فى نفسيتهــا نوازع الخير والشر ، بصورة تفوق شطحات أخصب خيال !

كيف لا وقد كانت حياتها أشبه بشريط سينمائى متتابع الحلقات ، من المؤامرات ، والدســائس ، والغــراميات الهوجاء ، والشهوات الجامحة ، والجرائم الدموية ، والحروب الدينية ، والمحن ، والمحاكمات ، والتعذيب الوحشى .. الخ .. الخ .. حتى انتهت حياتها أفجع نهاية وهى لم تتجاوز الخامسة والاربعين من عمرها (١٥٤٢ ــ ١٥٨٧) !

والآن ، تعــال معى نقم برحلة عبر التــاريخ الى انجلترا القرن السادس عشر ، لنروى القصة العجيبة من بدايتها :

ترث العرش بعد مولدها بأسبوع واحد !

• **كانت** « ماری ستيوارت » لاتزال فی الاسبوع الاول من حياتها ، حين آل اليها عرش اسكتلندا ، عام ١٥٤٢ ، على أثر وفاة أبيها الملك « جيمس الخامس » ، الذى مات فی عنفوان شبابه ، كسير القلب ، بتأثير هزيمة جيشه أمام جيش انجلترا المعادى . **(وقد كانت الجزر البريطانية فى ذلك العصر منقسمة الى مملكتين متخاصمتين ، بسبب المذهب الدينى ، هما : انجلترا ، (البروتستانتية) ، واسكتلندا (الكاثوليكية) .** وكان العداء بينهما شديدا محتدما الى درجة أشعلت بينهما نار حروب طويلة ، وعراك مسلح متجدد ، تناوبا فيه النصر والهزيمة ، المرة تلو المرة) .

فلما ورثت ماری عرش اسكتلندا ، وهى بعد طفلة ، قدم لها « هنرى الثامن » ـ ملك انجلترا فى ذلك الحين ـ ابنه الصبى « ادوارد » (الذى تولى الملك فيما بعد ، باسم ادوارد السادس) ، ليكون زوجا لهـــا .. غير أن أولى الأمر الاسكتلنديين خشوا يومئذ من سيطرة الانجليز على وطنهم ، فانتهوا بعد مشاورات طويلة الى رفض ما عرضه هنرى !

وازاء هــذه ((الاهانة)) ، أو هــذا التحدى ، شن هنرى الثامن الحرب على اسكتلندا من جديد .. فما كان من فرنسا ـ حليفــة اســكتلندا التقليدية فى ذلك العصر ـ الا أن هبت لنجدتها ، بل وخطبت الملكة الطفلة لولى عهدها (الذى تولى عرش فرنسا فيما بعد ، باسم فرانسيس الثانى) ، ثم أرسلت الطفلة الى البلاط الفرنسى ، تأمينا لسلامتها .

وفى بلاط ملك فرنسا ، نشأت « ماری » النشأة الكاثوليكية الصارمة التى تلائم هوى شعبها ، ولقنت من التقاليد الفرنسية

وآداب السلوك ، واللغة ، ما جعل منها امرأة فرنسية أكثر منها اسكتلندية !

ذات العرشين .. بل الثلاثة عروش !

• **فلما** بلغت « مارى » السادسة عشرة ، تولى زوجها عرش فرنسا ، فأصبحت بذلك ـ فى وقت معا ـ ملكة على اسكتلندا ، وزوجة لملك فرنسا ، أو ملكة ـ بالزواج ـ على عرش فرنسا .. بل واعتبرها غلاة الكاثوليك الملكة الشرعية لانجلترا أيضا ، باعتبارها ابنة ابن ابن أخت الملك هنرى الثامن ملك انجلترا . (أما ابنة هنرى الثامن « اليزابيث » ، التى كانت قد تولت عرش انجلترا بالفعل فى تلك الاثناء ، خليفة لأخيها ادوارد السادس ، فقد اعتبرها الكاثوليك وريثة « غير شرعية » لعرش هنرى الثامن) .

أرملة .. فى الثامنة عشرة !

• **ولندع** الآن « مارى ستيوارت » تنوء بحمل تيجانها الثلاثة ! ـ وهى بعد فى بلاط زوجها ملك فرنسا ـ ولنعد الى اسكتلندا ، لنرى كيف كانت تجرى الأمور فيها منذ تركتها ملكتها الطفلة عام ١٥٤٢ . فطوال تلك الاعوام كانت أمها ـ « مارى دى جيز » ـ تحكم اسكتلندا بصفتها وصية على ابنتها الملكة .. وكانت الحرب بين اسكتلندا وانجلترا ، (أو بين الكاثوليك والبروتستانت) ، قد انتهت بهزيمة الانجليز .. لكن الصراع بين المذهبين ـ الذى كان يزلزل أوربا بأسرها فى الواقع ـ جلب على اسكتلندا نيران الحرب الاهلية ، فوقع فيها انقسام داخلى فرق بين أبنائها أنفسهم .. فلما ماتت « مارى دى جيز » ـ الوصية على العرش ـ عام ١٥٦٠ ، ضعفت شوكة الكاثوليك ، فاستولى النبلاء البروتستانت على مقاليد الامور فى البلاد ، بمساندة انجلترا .

ولكن لم يمض عام ، حتى مات ملك فرنسا الشاب فرانسيس الثانى (زوج مارى ستيوارت) ، فلم يبق أمام أرملته الحسناء « مارى » ــ وكانت فى زهرة ربيعها الثامن عشر ، وفى قمة الفتنة ــ الا أن تشد رحالها عائدة الى وطنها الاصلى (اسكتلندا) ، كى تواجه أشق مهمة : مهمة حكم مملكتها الممزقة الاوصال !

ترفض عروضا للزواج من ملوك !

وكانت مارى تنشد لمملكتها سلاما تستطيع فى ظله أن تقوى وتضمد اضطراباتها .. ومن ثم رفضت عدة عروض للزواج من ملوك على دول أوربية ، خشية أن يؤدى ذلك الى جر اسكتلندا الى الاشتباك فى حروب خارج أراضيها .. وعلى العكس من ذلك بذلت مارى قصارى جهودها كى تتيح للبروتستانت والكاثوليك من رعاياها ــ على السواء ــ أن يعيشوا معا فى سلام ووئام .. كما سعت لانهاء النزاع الطويل المرير مع جارتها انجلترا ، متوسلة الى ذلك بحكم رابطتى القرابة والانوثة اللتين تجمعان بينها وبين ملكة انجلترا : اليزابيث .. دون أن يخطر ببالها أن تطالب لنفسها بعرش انجلترا ، كما كان غلاة الكاثوليك يرغبون !

.. غير أن سياسة التسامح والعدالة ــ التى انتهجتها مارى ــ لم تلبث أن أغضبت الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، فى داخل المملكة وخارجها ، بل وألبتهم ضد الملكة الشابة التى تنشد الخير للجميع .

.. كما أن الانجليز ــ الذين كانوا يحاولون طيلة القرون السابقة أن يضموا اسكتلندا اليهم ــ لم ترق لهم فكرة استقلال مارى بسياسة خاصة بها .. ومن ناحية أخرى ، كانت ملكتهم « اليزابيث » تكره مارى ، وتخشاها ، وتغار

منها !.. ورغم تظاهرها بالاستجابة للروح الودية التى تبديها مارى نحوها ، فانها كانت تضمر لها العداء الكامن ، وتحرض ضدها — فى الخفاء — العناصر البروتستانتية من أهل اسكتلندا ، واعدة اياهم بالمساعدة والتأييد اذا هم أفلحوا فى خلعها عن العرش !

على أن مارى استطاعت برغم هذه التيارات المعادية أن تبقى على السلام فى مملكتها طوال خمسة أعوام ، وأن تكتسب حب رعاياها ، من أتباع المذهبين الدينيين على السواء ، بحيث أدرك أعداؤها خطورة مهاجمتهم لها مهاجمة صريحة ، ما لم يفلحوا قبل ذلك فى اثارة ثائرة شعبها ضدها !

وفى تلك الأثناء ، تأزمت مشكلة حيرة مارى بين احجامها عن الزواج منذ وفاة زوجها الاول ملك فرنسا ، وبين رغبة شعبها فى أن تتزوج كى تنجب لهم وليا للعهد (بعد أن فشلت زيجتها الاولى فى أن تنجب لها خلفا) !

وهنا يحسن بنا أن نعود الى الوراء ، لنتناول حقبة السنوات الخمس الاولى من حكم مارى ، بمزيد من التفصيل ، ولا سيما من زاوية حياتها العاطفية وعلاقاتها الشخصية .

أجمل نساء عصرها !

• **عندما** ترملت مارى ، فى ربيعها الثامن عشر ، وغادرت فرنسا لتتولى حكم وطنها الاصلى (اسكتلندا) ، **كانت تعتبر أجمل نساء عصرها ، وأكثرهن تهذيبا ، وأجدرهن بلقب « المرأة الكاملة الصفات » !.. كانت ذات وجه فاتن ، رائع القسمات .. وجسم رشيق فارع ، بديع التكوين .. وحركات تتسم بالأناقة وتنم عن عراقة الأصل ..** فضلا عن براعتها فى ممارسة الفروسية والرقص ، وامتلاكها لناصية جميع الفنون النسائية التى كانت « موضة » شائعة فى ذلك العصر

.. وبالاضافة الى ذلك كله كانت تتقن عـدة لغات ، اتقانا مثاليا ، (وفقا لتقاليد البلاط الفرنسى فى أزهى عصوره !) ، كما كانت ذات دراية بالسياسة وشئون الحكم ، اذ تمرست بهما بصفة خاصة خلال الاعوام التى كان فيها زوجها وليا لعهد فرنسا ، ثم ملكا عليها ، حتى لقد كان كثيرا ما يستشيرها فى شئون الحكم ويستمع الى نصائحها وآرائها بصددها ..

وبرغم ذلك كله كانت مارى جمة التواضع ـ مما أضفى على جمالها مزيدا من الرواء ـ كما اشتهرت بروح الدعابة والمرح، اللذين كانت تنساق فيهما أحيانا فتتجاوز حدود اللياقة !

وبقدر ما كان رعاياها يترقبون عودتها الى وطنها ـ على أثر وفاة زوجها ملك فرنسا ـ بمزيد من اللهفة والامل ، كانت مارى ـ على العكس منهم ـ تشفق من العـودة الى وطن تجتاحه العواصف والمشكلات السياسية المعقدة .

وداع متوجس .. واستقبال هزيل !

• **وحين** حانت ساعة الرحيـل ، فى الخامس عشر من أغسطس عام ١٥٦١ ، وقفت مارى على ظهر السفينـة التى أقلتهـا ، ترنو ببصرها ـ فى قلق وتوجس ـ نحو الشواطىء الفرنسية .. حتى اذا ما اختفت عن ناظريها ، هتفت فى أسى : **« وداعا .. وداعا ، يا فرنسا الجميلة !.. فأغلب الظن اننى لن أراك ثانية ! »**

وبعد أربعة أيام ، رست السفينة على الشاطىء الانجليزى، فصدمها ـ أول ما صدمها ـ ضعف مظاهر الاستقبال التى وجدتها فى انتظارها . والجياد الهزيلة ، ذات السروج الممزقة ، التى أقلتها وحاشيتها الى (ادنبرة) ـ بعد أن ألفت جياد البلاط الفرنسى المطهمة الرائعة !

ومع ذلك ، فان مستقبليهـا ـ على جانبى الطـريق الى

عاصمتها (ادنبرة) ـ كانوا سعداء برؤيتها . وحاول نحو مائتين منهم أن يعبروا عن ترحيبهم بها ، بطريقتهم الخاصة ، فقضوا الليلة بأكملها يعزفون تحت نافذتها ـ على قيثاراتهم ذات الاوتار الثلاثة ـ ألحانا سقيمة مملة ، حرمتها متعةالنوم بعد عناء السفر الطويل !

دماثتها وحكمتها ، تكسبها محبة شعبها ..

• **وكانت** تصرفات مارى فى بداية عهدها بالحكم ، تتسم بالحكمة وبعد النظر ، الامر الذى أكسبها اعجاب رجال الدولة وثناءهم . وكانت ، برقة طباعها ودماثة خلقها ، تبعث النشوة فى نفوس عامة الشعب ..

وبنفس الحذق والنية الطيبة ، سعت مارى الى توثيق صلاتها بجارتها « اليزابيث » ، ملكة انجلترا . وأعربت ، فى كل مناسبة ، عن رغبتها فى أن تسود المحبة والود علاقتها بقريبتها الملكة ، وأكدت نبذها لاية أطماع فى عرشها ، مادامت اليزابيث على قيد الحياة !

بداية المتاعب !

• **لكن** مارى ـ رغم حكمتها ـ فشلت فى اكتساب مودة طبقة من رعاياها ، ذات نفوذ وسلطان ، هى طائفة أتباع المذهب الدينى « الاصلاحى » ، الذين لم يفتأ وعاظهم يذكرونها بالسوء من فوق المنابر ، ويرمونها بأحقر التهم ، فى لهجة عنيفة والفاظ مقذعة ! .. **وحدث أن تناول الواعظ المشهور « جون نوكس » تصرفاتها ـ فى احدى عظاته ـ بالتنديد والمهاجمة ، بأقسى العبارات ، فما كان من الملكة الا أن غضت من كبريائها وقبلت ان تلقاه ، لتعاتبه !..** وكان يعضد مارى فى خططها أخوها ، الذى كان فى ذلك الوقت مستشارها الاول وصديقها المفضل ، والذى كان تعلقها به

وتحقيقها لاطماعه سببا فى أول محنة تعرض لها عرشها !

كانت ماري قد خلعت على أخيها لقب « ايرل اوف مار » ، وتأهبت لان تتمادى فى تدليله فتمنحه لقب « ايرل اوف موراى » - الذى ينقل اليه ملكية الجزء الاكبر من الاقطاعيات الضخمة التابعة لهذا اللقب ! - وكان هذا الاجراء فى ذاته كفيلا باثارة حفيظة عميد أقوى أسرة فى شمال اسكتلندا ، المدعو « ايرل اوف هنتلى » ، الذى كان قد استولى لنفسه على جانب كبير من تلك الاقطاعيات ، وكان رجلا شجاعا ذا سطوة ونفوذ كبيرين فى الاقاليم الشمالية ، الامر الذى أثار قلق الملكة من أن يستخدم تلك السطوة فى مناوأتها ، فرحبت بما أبداه شقيقها من تصميم على كسر شوكة منافسه القوى .. بل وذهبت فى تأييده الى حد أن زحفت الى شمال اسكتلندا على رأس بعض فرق من جيشها ، فى حملة عسكرية هدفها تأديب ذلك الخصم المتمرد .. **ومضت - خلال تلك الحملة - تبيت لياليها فى الحقول ، وتقبل المأوى فى بيوت حقيرة لا تليق بمقامها السامى !**

نصر ساحق .. وهزيمة نكراء

• **غير أن** « هنتلى » لم يكن بالخصم السهل المنال ، فقد أفلح فى أن يجمع شمل جيش مضاد ، تقدم به نحو مدينة (ابردين) ، فى الوقت الذى جمع فيه شقيق الملكة قواته فوق ربوة تدعى (تل فير) .. ثم التحم الجيشان فى معركة طاحنة ، بالرماح والسيوف ، أسفرت عن انتصار جيش الملكة ، واندحار قوات خصمها ، ومصرع « هنتلى » تحت سنابك الخيل !

.. وظفر شقيق الملكة بلقبه الجديد ، وأملاكه الشاسعة .. وعادت الملكة من مغامرتها منتصرة ، وقد رسخت دعائم عرشها !

غيرة الملكة « العانس » ، تعرقل كل زواج !

• **غير** أن مارى لم تلبث أن واجهت مشكلة جديدة تتعلق بعرشها : ذلك انها لم تكن قد رزقت بنسل من زوجها الاول ـ ملك فرنسا ـ فكان طبيعيا أن يلاحقها شعبها بالرغبة فى أن تختار لنفسها زوجا ثانيا ، تنجب منه وليا للعهد ، يرث عرشها ، (بل ويرث معه عرش انجلترا أيضا ، بعد أن كانت ملكتها العانس « اليزابيث » قد أعلنت تصميمها على عدم الزواج ، فباتت « مارى » ونسلها هم الورثة الشرعيون لعرش انجلترا من بعدها ، ومن ثم بات من مقتضيات اللياقة أن تحصل مارى على موافقة اليزابيث بشأن شخصية الزوج الذى سينجب الوريث للعرشين !)

ورغم أن « اليزابيث » كانت من أحكم الملكات اللواتى عرفهن التاريخ ، فان موقفها من قريبتها « مارى » اتسم ـ من البداية ـ بقدر كبير من الحسد والخداع ، لا يتفق البتة وما عرف عنها من خصال فاضلة .. **فقد لجأت الى أحقر الوسائل ، وأكثرها مراوغة ، لتحبط زواج مارى . وفى كل مرة اقترحت فيها ـ هى ذاتها ! ـ عريسا لمارى ، كانت لا تلبث أن تضع من العراقيل ما يحول دون اتمام الزواج !**

وفى غضون ذلك ، كانت مارى قد اتجهت بقلبها نحو شاب من النبلاء ـ يمت بصلة القرابة اليها والى اليزابيث ـ هو « لورد دارنلى » ، (المنحدر من نسل جدها وجد اليزابيث على السواء ، الملك هنرى السابع) . وحسبت مارى أن زواجها منه سوف يحظى برضى اليزابيث وترحيبها .

« دارنلى » يسعى الى تحقيق حلمه .. بالحيلة !

• **وكان** الشاب « دارنلى » يومئذ فى التاسعة عشرة من عمره ، يثير اعجاب النساء بقامته الفارعة ، وطلعته الوسيمة ،

ومظهره الفاتن على وجه العموم . غير انه كان ــ لسوء الحظ ــ شديد الرعونة ، يفتقر الى الفطنة والتعقل ..

وكان دارنلي ــ لكي يحقق مآربه في الزواج من الملكة ، بعد أن استحوذ على عواطفها ــ قد عمد الى توثيق علاقته برجل ايطالي من العامة يدعى ((دافيد ريتزيو)) كان معروفا بنفوذه وقوة تأثيره على الملكة ، بحكم منصبه واتصاله الوثيق بها بصفته سكرتيرها الخاص للشئون الفرنسية . وكانت قد أهلت ريتزيو لذلك درايته الواسعة بالموسيقى ــ وهو الفن الذى كانت ماري مشغوفة به ! ــ فكان ان منحته ثقتها ورفعت الكلفة معه الى حد انها سمحت له بالدخول الى مجلسها بغير استئذان .. فلم يلبث ــ بفضل حذقه وفطنته ، وقدرته على الايعاز ــ ان سيطر على عقلها تماما !.. وكان مما ساعده على بلوغ هذه المكانة ظروف معينة أحاطت بالملكة في تلك الاونة ، فقد كان من الطبيعي أن تحتفظ الى جوارها بشخص تستطيع أن توليه ثقتها ويكون موضع سرها . شخص يتقن اللغات الاجنبية وتكون له خبرة بتصريف الامور ، بحيث تستطيع عن طريقه أن تتصل بالدوائر الاوروبية ، ولا سيما بأصدقائها في البلاط الفرنسي .

رائحة الفضيحة تفوح !

• **على أن** اختيار الملكة لرجل أجنبي ، وضيع المنبت ، كاثوليكي المذهب ، ورفعها اياه من الحضيض الى منصب من أرفع مناصب الدولة ــ هو منصب ((وزير التاج)) ! ــ قوبل باستياء بالغ من جانب النبلاء الاسكتلنديين ، الذين كانوا يعتزون بمكانتهم وعراقة نسبهم ، فرأوا في احتضان الملكة لذلك الدخيل الاجنبي ، وما صار يتكلفه من رفعة شأن زائفة ، امتهانا لهيبة العرش وكرامة الملكة ، ولم يتوانوا عن

ابداء هذا الرأى بصراحة فى مجالسهم .. ثم لم يلبث الامر أن انتشر بين أفراد الشعب ، حتى غدا « فضيحة » شائعة !

.. وفى تلك الاثناء كان « دارنلى » قد وطن نفسه على استغلال الحظوة التى يتمتع بها « ريتزيو » لدى الملكة ، فى رفع أسهمه هو فى « بورصة » قلبها . وبالفعل ، استخدم الايطالى من جانبه كل ما يتقنه من فنون المداهنة والدهاء ، لصالح دارنلى !.. فكان أن صممت الملكة على التغلب على شتى العراقيل التى تقف فى سبيل اتمام زواجها من الشاب الذى استولى على قلبها . وبعد مناورات ومداورات خطبت بها ود شعبها حتى ظفرت بمباركته لمشروع الزواج ، وذللت العقبات التى بثتها « اليزابيث » فى طريق اتمامه .. عقد زفاف « مارى » و « دارنلى » فى (ادنبرة) فى ٢٩ يوليو ١٥٦٥ .

تلاقى أشد معارضة .. من أخيها !

• **وما كاد** النبأ يبلغ « اليزابيث » حتى أطار صوابها الغضب ، والحقد ، والغيرة ، فأعلنت معارضتها لذلك الزواج !

.. على أن أشد معارضة لاقتها مارى بشأن زواجها ذاك انما جاءت من جانب أخيها « ايرول اوف موراى » دون سواه !.. فقد كان الشقيق المدلل من ألد أعداء دارنلى ، كما انه كان يتزعم فريق النبلاء البروتستانت ، الذين كانوا يرون فى ذلك الزواج خطرا يهدد عقيدتهم ، فما كاد نبأه يعلن حتى أعلن « موراى » وأنصاره بدورهم العصيان !.. واذ ذاك طار لب الملكة شعاعا ، فاستحثت رعاياها على مناصرتها ، ولبوا بالفعل نداءها فسارت قوة منهم لتأديب العصاة ، وكان على رأس القوة دارنلى - مرتديا درعا موشى بالذهب ! - والى جانبه الملكة وقد حشت سرج فرسها بالمسدسات !.. لكن حركة التمرد انتهت بتقهقر المتمردين وتشتيت شملهم ، ثم

فرار قوادهم الى انجلترا !

وهكذا استتب الامر لمارى ، **لكنها لم تلبث أن أدركت أن عدوها الحقيقى هو ذلك الزوج الاحمق ، الارعن ، الذى اختارته لنفسها .. فقد راح يعاملها معاملة مهينة - سواء كملكة ، أو كامرأة ! - فضلا عن ادمانه الخمر وشتى أنواع الموبقات** .. وذات يوم فوجئت به يطالبها بأن تمنحه سلطة مساوية لسلطتها ، بحكم زواجه منها ، كى يصبح بمثابة ملك ، وليس مجرد « زوج الملكة » !

لكن مارى ضنت عليه بهذا المطلب .. وحين باءت جهوده بالفشل ، صب جام حقده على مستشار الملكة الايطالى « ريتزيو » - الذى كان قد أعانه على الزواج من الملكة ! - ظنا منه بأنه هو الذى حرض الملكة الآن على وضع حد لمطامع الزوج وأحلامه .. فما كان منه الا أن أقسم على قتله !

الفأر .. فى المصيدة !

• **وكانت** الملكة مارى تميل - كأبيها « جيمس الخامس » - الى طرح مهام الحكم وراء ظهرها ، من حين لآخر ، والانغماس فى سهرات خاصة عابثة . وقد ألفت أن تدعو - فى تلك المناسبات - أتباعها المخلصين الى مائدتها . ويبدو أن « ريتزيو » قد نال هذا الشرف مرات عديدة . وفى التاسع من مارس عام ١٥٦٦ ، دعت الملكة ستة أشخاص - كان « ريتزيو » أحدهم - لتناول العشاء فى غرفة صغيرة ملحقة بمخدعها ، لا سبيل الى الوصول اليها الا عبر ذلك المخدع .

.. وحوالى الساعة السابعة من ذلك المساء ، حاصر أحد أعوان دارنلى - ومعه حوالى مائتين من رجاله - أسوار القصر .. بينما اتجه دارنلى ، على رأس فريق آخر - انتقى أفراده بنفسه ، بعناية - نحو مخدع الملكة ، عن طريق دهليز



وزحفت « مارى » الى اسكتلندا على رأس بعض فرق من جيشها .

(ص ١٣)



واستسلمت « مارى » لطارديها ، فاقتيدت الى مقر قيادتهم ، حيث
استقبلها النبلاء فى احترام صامت .
(ص ٢٥)

سرى .. فلما ولج الغرفة الصغيرة الملحقة بالمخدع ، وقف لحظة يرمق غريمه فى صمت ، بعينين يتطاير منهما الشرر .. ثم تقاطر أعوانه المسلحون على الغرفة الضيقة ، فلم تلبث أن غصت بالرجال شاكى السلاح !

وحدجتهم الملكة فى غضب ، متسائلة عن سبب قدومهم — دون ما دعوة ! — **ومن نظراتهم المتبادلة أدرك « ريتزيو » أن حياته كانت ما يسعون اليه !.. فاستولى عليه الفزع ، واختبأ وراء ظهر الملكة ، متشبثا بثوبها ، عسى أن تردهم هيبة « مارى ستيوارت » عن تنفيذ مؤامرتهم !**

ولكن المتآمرين لم يلقوا بالا الى الملكة ، بل قلبوا المائدة التى تتوسط الغرفة ، وأمسكوا بتلابيب الايطالى التعس ، وراحوا يجرجرونه بعيدا عن الملكة ، وهو يحاول عبثا التشبث بثوبها .. بينما أمسك دارنلى بزوجته كى يمنعها من التدخل !

وكانت خطتهم ترمى الى الابتعاد بضحيتهم عن المكان ، ثم الاجهاز عليه بعيدا عن أعين مارى ، لكن أحدهم — ويدعى جورج دوجلاس — كان يضمر للايطالى حقدا دفينا ، **فاختطف خنجر دارنلى من غمده وطعن به « ريتزيو » الطعنة الاولى .. فتشجع الآخرون وحذوا حذوه ، منهالين عليه بخناجرهم ، حتى انهم عندما ألقوا بجسده آخر الامر من أعلى السلم الى أسفل ، كان جسده مثخنا بخمس وستين طعنة !** .. وخلال تلك اللحظات المشئومة ، ظلت الملكة تتوسل اليهم ، والدموع تنهمر من عينيها ، ان يبقوا على حياته .. فلما حم القضاء وسمعتهم يتناقلون القول بأنه قد لاقى حتفه ، جففت دموعها وتمتمت : « سأبدأ من الآن فى دراسة طريقة للانتقام ! »

الفزع يشتت شمل المتآمرين !

• **على أن** دارنلى لم يكد يحس بمغبة جريمته ، حتى

راحت أوصاله ترتجف ، واستسلم للخوف من عاقبة ما جنت يداه !.. وانتهزت مارى فرصة حالة الضعف التى انتابت زوجها الرعديد ، فعرضت عليه أن ينقلب على شركائه فى المؤامرة . وما لبثت أن غادرت العاصمة بصحبته الى قلعة (دنبار) .. **واذ كانت موقنة من أن النجاح لن يكتب لها الا بمساعدة أخيها وأعوانه ، فقد بادرت الى أصدار عفو عن « ايرل اوف موراى » وأنصاره ، وفتحت باب قصرها لاستقبالهم** .. واذ ذاك لم يجد شركاء دارنلى مناصا من الفرار الى انجلترا ، التى كانت تفتح صدرها لكل فار يلجأ اليها من اسكتلندا ـ مهما كانت جريمته ! ـ تنفيذا للسياسة التى استنتها « اليزابيث » ازاء كل من يناصب « مارى ستيوارت » العداء !

عفو عن القتلة !

• وفى التاسع عشر من يونية ١٥٦٦ ، وضعت مارى ابنا ذكرا ـ تولى العرش فيما بعد باسم « جيمس السادس » ـ وأقامت له حفلة « تعميد » فاخرة ، تحدث عن مظاهر البذخ والاسراف فيها سكان اسكتلندا وانجلترا على السواء .. غير أن الملكة لم تكد تنفض يدها من ذلك الاحتفال حتى ركزت جهودها فى القضاء على أسباب الشقاق بين نبلاء بلاطها ، فأصدرت عفوا شاملا عن جميع الذين اشتركوا فى اغتيال « ريتزيو » ـ برغم ما انطوى عليه ذلك التصرف من امتهان لكرامتها ـ ولم يكن قد أعدم منهم غير اثنين من ذوى الرتب الصغيرة .

دخيل جديد يسيطر على الملكة !

• فى تلك الاثناء برز على مسرح الاحداث رجل فى منتصف العمر ، شديد المراس ، قاسى القلب ، جموحا متهورا ، لايهاب

فى سبيل تحقيق مطامعه خطرا ، يدعى « لورد بوثويل » . وكان من أشد المناصرين لقضية الملكة ، وقد أتاحت له مكانته ، كعميد لاحدى العائلات القوية النفوذ فى اسكتلندا ، أن يجند جيشا قويا يأتمر بأمره ، ويرتقى الى أعلى المناصب فى البلاط ، **مما أطلق ألسنة الكثيرين - وفى مقدمتهم مبشرو المذهب الاصلاحى - بانتقاد مغالاة الملكة فى « تدليل » رجل على تلك الدرجة من العنف ، بل والتهتك !**

.. وخلال ذلك كانت مظاهر الشقاق تتزايد تدريجا بين الملكة وزوجها دارنلى ، الذى كان لا يفتأ يزج بأنفه فى شئون الحكم ، مما حدا برجال البلاط الى التهامس فيما بينهم بأنه خليق بالملكة أن تتحرر من ارتباطها بذلك الشاب المعتوه ، المختل الاعصاب ، فاقترحوا عليها أن تتخلص منه بالطلاق .. غير أنها رفضت مجرد مناقشة هذا الاقتراح !

.. واذ ذاك بدأت تتبلور فى أذهان البعض فكرة « اغتيال » دارنلى ! .. وكان أول من طرأت له هذه الفكرة هو « بوثويل » ، الذى كان واثقا من أنها لن تتردد فى اختياره هو زوجا لها ، اذا ما تخلصت من دارنلى !

وفيما كانت هذه المؤامرات تحاك للقضاء على حياة زوج الملكة ، سقط هو مريضا بداء (الجدرى) فى جلاسجو ، فأرسلت اليه مارى طبيبها الخاص ، وما لبثت أن لحقت به لتسهر على رعاية دارنلى بنفسها ، حتى لقد بدا أن الوئام عاد بينهما الى سيرته الاولى ، قبل أن يقترف الزوج جريمته . وفى يوم ٣١ يناير عام ١٥٦٧ عادا سويا الى (ادنبرة) ، غير أن الزوج اتخذ مأواه فى كنيسة صغيرة تقع خارج أسوار العاصمة ، بينما نزلت الملكة والامير الطفل فى قصر (هوليرود) ، بحجة الحيطة من خطر انتقال عدوى (الجدرى) اليهما !

الانتقام الرهيب

• وفى عشية التاسع من فبراير ، تسلل عدد من أقارب « بوثويل » وخدمه وأتباعه الى الكنيسة التى كان يأوى اليها دارنلى ، حاملين قدرا كبيرا من البارود ، مستعينين بمفتاح مصطنع للدخول الى قبو الكنيسة .. وهناك بثوا البارود أسفل الحجرة التى كان يرقد فيها دارنلى . وبعد منتصف الليل بساعتين ، أقبل « بوثويل » متنكرا فى هيئة فارس ملثم ، ليشهد بنفسه تنفيذ مؤامرته البشعة ، ودخل اثنان من أتباعه ليشعلوا الفتيل الذى يفجر البارود !

.. ولم تمض دقائق ، حتى وقع الانفجار الذى نسف الكنيسة وأشعل فيها النار . وكان دويه من القوة بحيث أزعج المدينة بأسرها !.. وحين استقرت الانقاض وأخمدت النيران ، وجد جثمان دارنلى فى الحديقة وقد أطاح به الانفجار !

وأثارت هذه الميتة البشعة موجة عاتية من الاستياء فى (ادنبرة) ، بل فى جميع أنحاء المملكة .. واعتبر « بوثويل » ــ فى نظر الرأى العام ــ المدبر الفعلى للجريمة . وحين استمر يحظى بتأييد الملكة وعطفها ، ساءت سمعة مارى ستيوارت نتيجة لذلك !.. وانبرى والد دارنلى التعس ، المدعو « ايرل اوف لينوكس » يتهم بوثويل علنا بقتل ابنه ، فما كان من القاتل الا أن طلب مثول الوالد أمام المحكمة فى ظرف ١٤ يوما كى يقدم « الدليل » على صحة اتهامه !.. وعبثا حاول مد أجل المهلة المعطاة له لاثبات الجريمة بالدليل القاطع . وفى يوم الجلسة تظاهر نحو خمسة آلاف من أتباع « بوثويل » الاشداء فى قاعة المحكمة ، لارهاب القضاة .. فسرعان ما حكموا ببراءة بوثويل من جريمة كان الرأى العام كله مقتنعا بارتكابه اياها .. وما فتىء يسخر بعدها من ذلك

الامتهان المزرى للعدالة !

.. أمابوثويل ، فقد دعا فريقا من النبلاء الى مأدبة عشاء فى احدى الحانات ، وجعلهم يوقعون على عريضة يعلنون فيها براءته من تهمة قتل زوج الملكة ، ويزكونه باعتباره أصلح رجل تستطيع مارى ان تتخذه زوجا لها !

وعلى اثر ذلك اعترض بوثويل وأتباعه موكب الملكة أثناء عودتها الى أدنبره ، وبعد أن جرد حاشيتها من كل سلاح ، ساقها الى قلعة «دنبار» التى كان حاكما عليها ، دون ان تبدى مارى اية مقاومة أو تفصح عن ذلك الشعور بالحنق والعار الذى كان خليقا بها أن تحسه ، سواء كملكة ، أو كامرأة ! .. **وبعد أن قضيا فى القلعة عشرة أيام ، ظهرا معا فى العاصمة وقد بدا عليهما الوفاق والتفاهم !**

.. وفى تلك الاثناء كان بوثويل قد حصل على حكم بالطلاق من زوجته !.. ولم تلبث الملكة أن أصدرت فى الثانى عشر من مايو بيانا أعلنت فيه صفحها عما اقترفه معها من أعمال العنف ، وعزمها على ان تسبغ عليه امجادا جديدة . وفى اليوم التالى منحته بالفعل لقب «دوق أوركنى» .. ولم يمض يومان اخران حتى ارتكبت مارى ــ برعونة وطيش لا يمكن اغتفارهما لها ــ حماقتها الكبرى ، بالزواج منه ، وهو الطامع الملوث بدم زوجها السابق دارنلى !

استجارت من الرمضاء بالنار !

• **لكن** مارى لم تلبث أن اكتشفت انها قد ارتبطت برجل أشر وأنكى من زوجها السابق المرن «دارنلى» ! .. حتى لقد صار يخاطبها بصلف ووقاحة ، ودت معهما لو تستل سكينا فتطعن بها نفسها ، كى تتخلص من سوء معاملته اياها !

وفى الوقت نفسه كان استياء الرأى العام يزداد تفاقما ..

واجتمعت كلمة فريق من النبلاء الذين كانوا على علم بجريمة قتل «دارنلى» على وجوب الانتقام لمصرعه والتخلص من خلفه الوصولى « بوثويل » !.. **ولولا تسرعهم فى تنفيـــذ خطتهم لفاجأوا الملكة وزوجها الجـديد أثناء تناولهما العشاء فى قصر صديق لهما .. لكن الطريدين استطاعا الفرار الى (دنبار) بعد أن تنكرت الملكة نفسها فى زى ((وصيف)) من خدمها !**

وتابع النبـلاء زحفهم الى (دنبار) ، بينما جمعت الملكة وبوثويل جيشا لملاقاتهم على عجل . والتحم الجيشان فى يوم ١٥ يونية عام ١٥٦٧ فوق تل (كاربيرى) ، فتقاعس جنودها عن مقاتلة أعدائها ـ متأثرين بروح التذمر التى سادت البلاد ضدها ـ وسرعان ما تشتت شمل قواتها وبدت نذر الهزيمة ، فما كان من مارى الا أن نصحت زوجها بأن يبادر بالفرار من الميدان . ولم يتوان بوثويل عن تلبية نصيحتها ، فأطلق لجواده العنان بأقصى ما وسعه ، متجها الى (دنبار) .. ومن هنـاك ركب البحر ، ناجيا بنفسه من غضب الشعب !

أما مارى فقد سلمت نفسها لمطارديها ، فاقتيدت الى مقر قيادتهم ، حيث استقبلها النبلاء فى احترام صامت . لكنها لم تنج من سلاطة ألسنة الجنود الذين لاحقوها أثنـاء مرورها بالاهانات وصيحات الاستهزاء ، حتى اضطر قائدهم الى أن يستل سيفه مهددا كى يكفوا عن مسلكهم المعيب !

الجريمة لاتفيد !

• **غير أن** اهانات أقسى وأشد نكرا كانت فى انتظار الملكة ، فانها لم تكد تقترب من العاصمة (ادنبرة) ، مسوقة فى موكب العار وراء قاهريها ، حتى استقبلتها جماهير الغوغاء بأبشع البذاءات والشتائم !.. وكانوا يحملون لافتة كبيرة رسمت على أحد وجهيها جثة دارنلى وهو ملقى فى الحديقة بعد نسف

الكنيسة التى كان يأوى اليها . وعلى الوجه الآخر صورة طفله الصغير راكعا يبتهل الى السماء ، كأنما يسألها أن تنتقم له من قتلة أبيه !.. **وراح المتظاهرون يلوحون بهذه اللافتة فى وجه الملكة وهى تتابع مرورها فى الشوارع فوق صهوة جوادها ، وقد تهدل شعرها ، واضطربت ثيابها وكساها الغبار ، وناءت تحت وطأة الحزن والخجل والأعياء !**

غير أن أحزان الملكة لم تلبث أن حركت قلوب أفراد الطبقة المتوسطة من المواطنين ارباب الحرف ، فأبدوا رغبتهم فى الاخذ بناصرها فى محنتها ، الامر الذى اضطر آسريها الى نقلها تحت جنح الظلام فى الليلة التالية من (هوليرود) الى قلعة (لوشليفين) الواقعة فى احدى الجزر الصغيرة ، حيث ظلت سجينة ، تنتظر مصيرها المجهول !

واذ فرغ النبلاء من أمر الملكة ، اتجه اهتمامهم الى مطاردة بوثويل ، فأطلقوا فى أثره سفينتين كادتا تقتنصانه فى ميناء (ليرويك) ، لولا أن اصطدمت أولاهما بصخرة وغرقت ، فأتاحت للشقى اللحظات الكافية كى يلوذ بالفرار !.. **لكن قدره كان له بالمرصاد ، فقد اضطر الى احتراف القرصنة فى البحار الشمالية ، كى يعول نفسه واتباعه ، فلم تلبث أن هاجمته بعض سفن الاسطول الدنمركى وأوقعت به ، ثم ألقته سجينا فى أقبية قلعة (مالماى) ، حيث لاقى حتفه فى زنزانته فى أواخر عام ١٥٧٦ ..**

وهكذا نال الشقى جزاءه العادل !

الملكة .. فى السجن !

• **وفى** تلك الاثنـاء ، كانت مارى تحصد كل مازرعه « بوثويل » من شرور ، وتجنى ثمرة افتتانها به .. ولقد جرعت كأسها حتى الثمالة !.. كانت قد طرحت سجينة فى

برج خشن كئيب لا تتوفر فيه وسائل الراحة ، باحدى الجزر الصغيرة .. وكان من رأى البعض **أن تقدم مارى للمحاكمة بتهمة اشتراكها فى جريمة قتل زوجها السابق دارنلى ، وان يحكم باعدامها جزاء وفاقا على جريمتها !** .. لكن غالبية اعضاء مجلس النبلاء الذى تولى الحكم رأى الاكتفاء باجبارها على التنازل عن العرش لابنها الطفل ، وتعيين اخيها « ايرل اوف موراى » وصيا عليه . وبعد اعداد صيغة المراسيم الخاصة بذلك ، أوفد المجلس اليها « لورد لندساى » ـ أكثر الاعضاء فظاظة وخشونة ـ ليجبرها على توقيعها . وقد سلك اللورد معها ، بالفعل ، مسلكاغاية فى الوقاحة والتحقير، حتى انه ضغط بقفازه الحديدى على ذراعها ليحملها على التوقيع!

حتى أنت يا « بروتس » ؟

• ولم يبق لمارى فى محنتها من ملجأ تنشد عنده الحب والحنان سوى أخيها « ايرل أوف موراى » ، ولقد كانت تستحق منه ذلك الحب والحنان ، أيا كانت جريمتها ، وافتتانها بزوجها الشرير ـ ذلك أنها قد أغرقته بأفضالها عليه ، وغفرت له مواقف عدائية كثيرة وقفها منها ـ **لكن «موراى» كان طموحا ، والطموح يمزق روابط الدم ، وينسى صاحبه واجب عرفان الجميل !.. ومن هنا زار الاخ أخته ـ وربة نعمته ـ السجينة فى قصر (لوشليفين) ، ولكن لالكى يواسيها ويخفف عنها ، بل ليشدد النكير عليها ويعيرها بأخطائها ، فى قسوة منقطعة النظير ، لم تملك مارى نفسها ازاءها من الانخراط فى البكاء ، والاستسلام لليأس !**

.. ثم قطع موراى كل روابط الدم بينه وبين شقيقته بقبوله الوصاية على طفلها ، وعرشها !.. وبهذا صار يرأس الهيئة الحاكمة للبلاد !

وقام صاحب قصر لوشليفين بمهمة « السجان » للملكة ، فأخلص فى أدائها اخلاصا بالغ القسوة !.. غير أن شقيقه الاصغر « جورج » كان أكثر عطفا على مارى فى محنتها ، أو لعله استجاب لجمالها ، ومن ثم دبر خطة لتمكين الملكة من الفرار من سجنها .. لكن تدبيره كشف ، فنفوه من الجزيرة !

يضع سره فى أضعف خلقه !

• **غير أنه** لم يعدم فى منفاه وسيلة للمضى فى خطته ، عن طريق غلام من أسرته ، فى الخامسة عشرة من عمره ، يدعى « دوجلاس الصغير » ، كان باقيا فى القصر .. ففى مساء الاحد ٢ مايو عام ١٥٦٨ سرق الغلام مفاتيح القصر ، بينما كانت الاسرة تتناول العشاء ، **فلما أخذ الجميع النعاس ، تسلل الى زنزانة الملكة ففتحها وقادها هى وتابعتها الى خارج القصر – بعد أن أغلق أبوابه من الخارج ليحول دون مطاردة الملكة ! – ثم أركبها ووصيفتها فى زورق صغير وراح يعمل مجدافيه فى الماء بأقصى قوته ، حتى بلغ الركب الشاطىء ، بسلام .. ولم ينس الغلام أن يقذف بمفاتيح القصر فى البحر !**

وكان المغامر الصغير قد حرص – قبل شروعه فى هذه المغامرة الرهيبة – على التلويح بمصباح صغير من نافذة معينة من نوافذ القصر كانت ترى من الشاطىء المقابل ، ليخطر أعوان الملكة بتأهبه للرحلة الحاسمة !.. وهكذا لم تكد الملكة تهبط من القارب حتى وجدت أعوانها (من أسرة هاميلتون القوية النفوذ) فى انتظارها .. فامتطت على الفور جوادا أعدوه لها ، وانطلقت به بأقصى سرعتها ..

المعركة الفاصلة !

• **وسرى** نبأ فرار الملكة فى طول البلاد وعرضها بسرعة البرق ، فأثار الحماس لقضيتها فى كل مكان .. وعاودت

الجماهير ذكريات لطف مارى ، ورقتها ، وجلالها ، وجمالها .. كما تذكروا المحن التى مرت عليها ، والتى كان فيها التكفير الكافى عما قد تكون ارتكبته من أخطاء !

وهكذا لم تمض ستة أيام ، حتى كانت سجينة البرج التعسة قد غدت على رأس حكومة جديدة قوية ، وألف أتباعها جيشا بقيادة «ايرل اوف ارجيل» ، تقدم لملاقاة جيش أخيها الوصى على العرش ، المرابط فى (جلاسجو) ، وكان الجيش الاخير دون جيش الملكة ، عددا وعدة ..

وفى ١٣ مايو ١٥٦٨ احتل الوصى قرية تعترض الطريق الذى سلكه جيش الملكة ، فاندفع فيلق منه يهاجم تلك القرية ليؤمن طريق الملكة ، لكن أفراد ذلك الفيلق أساءوا تقدير قوة عدوهم . ورغم العناد والبسالة التى أبدوها وهم يقاتلون بكل عنف الروح الاسكتلندية وضراوتها ، كما يقتتل ثوران هائجان حين يتناطحان ، **فقد انتهز العدو فرصة انشغال ذلك الفيلق فى المقدمة ، وهاجم جناح الجيش هجوما مفاجئا ، كان الحاسم فى المعركة ، فبدد شمل جيش الملكة وشتته تشتيتا مروعا !**

وكانت الملكة ترقب هذه الهزيمة النهائية ، القاضية ، من قصر يبعد نحو أربعة أميال عن قرية (بيزلى) — حيث كانت مارى قد قضت أسعد أيامها مع زوجها السابق دارنلى ! — فلما خمد غبار المعركة لم يبق بد من المبادرة بالفرار ، على جناح السرعة .. فانطلقت الملكة على جوادها فى رفقة نفر من أوفى أتباعها . وبعد مسيرة ستين ميلا ، بلغت نقطة كانت تملك منها أن تعبر الحدود ، أما الى فرنسا .. أو الى انجلترا !

الاختيار المشئوم ..!

• **كانت** فرنسا بمثابة وطنها الثانى ، الذى يفتح ذراعيه

لها على الدوام ، وهى التى تولت عرشه فترة من الزمن .. غير أن انجلترا كانت أقرب اليها منالا ، وكانت بدورها مكانا آمنا تستطيع أن تلجأ اليه وهى مطمئنة .. وكانت مارى قد نسيت أسباب التنافس التى أساءت الى علاقتها بجارتها الملكة اليزابيث فى الماضى ، ولم تذكر غير الكلمات الناعمة المعسولة التى سطرتها اليها اليزابيث فى عدة مناسبات ، وهكذا لم يخطر ببالها انها تقدم على أية مخاطرة اذا هى وضعت نفسها فى حماية الملكة الانجليزية ، وتحت رحمتها !

.. **وهكذا ، ورغم المعارضة الشديدة من جانب مستشاريها وأتباعها ، بل رغم توسلاتهم ، ومناشدتهم اياها أن تصيخ السمع لنصائحهم .. قررت مارى أن تلجأ الى حمى مملكة جارتها اليزابيث .. وخطت – الخطوة الحاسمة – الى الزورق الذى حملها الى الشاطىء الانجليزى** .. وهناك سلمت نفسها الى نائب محافظ المنطقة ، الذى بادر مدهوشا فأوفد مبعوثا الى مليكته اليزابيث يخطرها بالواقعة !

واذا كانت اليزابيث قد أظهرت فى مناسبات أخرى ما ينم عن عظمتها وسمو أخلاقها ، **فانها فى هذه المناسبة تصرفت بوحى من أحط الدوافع وأكثرها انطواء على الحسد والغيرة!..** وهكذا لم تلبث مارى ان وجدت نفسها محاطة بجنود من الحرس الانجليزى !.. واذ خشيت اليزابيث أن تخف قوات اسكتلندية الى نجدتها فيما لو تركتها فترة كافية على الحدود ، بالقرب من انصارها ومواطنيها ، فقد بادرت الى نقلها الى قصر (بولتون) بمقاطعة (يوركشاير) .. ولكى تبرر هذا الاجراء العنيف ، الظالم ، المجرد من الشهامة والكرم ، أوصت رسلها بابلاغ مارى أنها **تأسف لعجزها عن مقابلتها ، أو تدبير الاستقبال اللائق بها ، ما لم تثبت للعالم**

براءتها من التهم الفاضحة التى ينسبها اليها رعاياها !

وللفور أبدت مارى استعدادها لاقناع اليزابيث ببراءتها . لكن هذه فسرت قبول مارى ، بأنه يعطيها الحق فى أن تكون حكما بينها وبين الحزب المناوىء الذى حاربها وأودعها السجن !.. وهنا أوضحت مارى انها اذا كانت قد رحبت بأن تبدد شكوك اليزابيث وريبتها ، فانما فعلت ذلك بدافع من احترامها لرأيها وحرصها على توفير المودة بينهما ، لا لكى تقيم منها قاضيا يحاكمها !.. لكن اليزابيث تمسكت بموقفها ، وراحت تتصرف كما لو كانت مارى ــ بمحض ارادتها ــ قد جعلت من غريمتها الحكم الذى يقرر مصيرها !

هل كانت مارى عشيقة لبوثويل ، أثناء حياة زوجها ؟

• **وهكذا** أصدرت اليزابيث أمرا بتعيين مندوبين عنها يتولون سماع أقوال طرفى النزاع ، والاطلاع على مستندات كل فريق .. وحضر شقيق مارى ــ موراى ــ ليرفع عقيرته بتوجيه التهم الى أخته وربة نعمته !.. بينما أرسلت مارى بدورها أكفأ أتباعها ليتولى مهمة الدفاع عنها أمام المجلس .

واجتمع المجلس فى (يورك) فى أكتوبر ١٥٦٨ ؛ فاستمع الى اتهام موراى لشقيقته بخيانة زوجها ، ثم التحريض على قتله . وحين طولب الاتهام بالدليل الذى يثبت التهمة ، **قدم صندوقا به خطابات وأوراق قيل انها تخص الخادم الخاص لبوثويل ، وقد جاء فيها ما يظهر أن مارى كانت عشيقة لبوثويل أثناء حياة زوجها السابق دارنلى ، وانها علمت ووافقت على جريمة قتل ذلك الزوج التعس !..** ولكن ممثلى الملكة مارى دفعوا التهمة مؤكدين أن الخطابات والاوراق التى قدمت كانت كلها مزورة !

وبعد تحقيقات استمرت خمسة أشهر ، أخطرت اليزابيث

كلا الطرفين أنها – من ناحية – لم تلحظ شيئا يمس شرف ايرل اوف موراى ، أو يحط من قدره .. لكنه ، من الناحية الأخرى ، لم يستطع أن يقيم الدليل على صحة الاتهامات الخطيرة التى وجهها الى مليكته !.. ومن ثم فقد اعتزمت أن تترك شئون اسكتلندا تجرى كما كانت تجرى قبل أن تتدخل هى فى ذلك النزاع !

غير أن هذا القرار المنطوى على « عدم المبالاة » ، كان يقتضى من اليزابيث أن تقرنه باطلاق سراح مارى .. **لكن الذى حدث أنها تركتها حبيسة فى سجنها !.. بينما عاد « موراى » الى وطنه وقد حصل منها على مبلغ كبير من المال ، على سبيل القرض !**

عقدة الكبت والحرمان ، وراء الصراع بين الملكتين

• **وتركت** اليزابيث مارى فى سجنها .. تسعة عشر عاما كاملة !.. تسعة عشر عاما مكثتها مارى ستيوارت فى سجنها بانجلترا ، لا لجريرة أو ذنب ، سوى خشية اليزابيث على نفسها ، وعرشها ، من أن تطمع فيه مارى ، أو تحيك ضدها المؤامرات .. وهى وساوس وشكوك لم يكن ثمة ما يبررها ، **ولعلها كانت مجرد معاذير تعللت بها لتخفى دوافعها الخاصة التى كانت تمزق أحشاءها وتشعل حقدها على مارى .. دوافع غيرتها القاتلة – وهى العانس العاطلة من الجمال والعاطفة – من قريبتها الحسناء ذات الجمال الباهر ، الذى يتهافت عليه الرجال !**

تلك عقدة « الكبت ، والحرمان » التى ألبت اليزابيث ضد مارى وجعلتها تمعن فى تعذيبها والانتقام منها ، طوال تسعة عشر عاما .. وفى النهاية ، وتحت الحاح مخاوفها ، وحقدها ، ودسائس المقربين اليها ، لم تكتف اليزابيث بذلك

العقاب المروع ، بل دبرت لغريمتها مكيدة دنيئة ، اذ سلطت عليها سكرتيرها المدعو « والسنجهام » ، كى يوسوس لها بخطة مؤامرة كاثوليكية مزعومة تهدف الى خلع اليزابيث ، بمساعدة الأساطيل الاسبانية !.. **وبعد أن زين السكرتير الماكر لعدد من أعوان مارى أن يشتركوا فى المؤامرة الوهمية ، وتجمع لديه الدليل الرسمى على اشتراكهم .. بادر بالقاء القبض عليهم ، متلبسين بمؤامرتهم « المدبرة » !**

ونجح الفخ !.. وأدت محاكمة المتآمرين الى محاكمة مارى ستيوارت نفسها ، بتهمة التحريض على المؤامرة !

العنق الجميل .. تحت فأس الجلاد !

• **وصدر** الحكم على مارى بالاعدام ، بتهمة التآمر على عرش انجلترا !.. وانقسم مستشارو اليزابيث بين مؤيدين لتنفيذ الحكم ، ومعارضين له .. وفى هذا الجو العاصف ، الذى سيطرت فيه على اليزابيث الحيرة بين الانقياد وراء حقدها وغيرتها ، أو الاستماع الى نصائح المشفقين عليها من نتائج اعدام مارى ، تدور فصول هذه المسرحية الرائعة التى كتبها شاعر الألمان الكبير « فردريك شيللر » عن مأساة الملكة الاسكتلندية ، ذات العرشين ، التى سيقت فى النهاية الى حيث انكفأت بوجهها فوق كتلة من الخشب ، مسلمة عنقها لفأس الجلاد ، تهوى عليه بضربة واحدة ، تفصل الرأس الجميل .. عن الجسد الجميل !

وشهد الذين حضروا تنفيذ الاعدام ، انها استقبلت لحظاتها الأخيرة بشجاعة .. شجاعة تليق بملكة الاسكتلنديين البواسل .. فكانت فى موتها المنتصرة على غريمتها العانس الانجليزية الدميمة ، التى عاشت لتحكم انجلترا وهى تجتر آلام دمامتها ، وغيرتها ، وحرمانها .. ومرارة نفسها !

والآن ، أتركك لتتذوق المتعة الذهنية التى تتيحها مطالعة هذه المسرحية التاريخية البارعة ، التى صب فيها « شيللر » آراءه وأفكاره وتأملاته الشعرية على ألسنة أبطالها ، فى غضون ذلك الصراع الرهيب ، الطويل ، الدامى .. بين الملكتين المتنافستين !

حلمى مراد

استدراك هام

نأسف لوقوع خطأ مطبعى فى ترتيب سطور صفحتى ٤٠ و ٤١ من هذا العدد ، اذ نقل السطران الأخيران من صفحة ٤١ الى أسفل صفحة ٤٠ ، ويمكن قراءة الصفحتين على الوجه الصحيح اذا أهملت السطرين الأخيرين من صفحة ٤٠ عند قراءتها ، ثم قرأت السطرين المذكورين بعد نهاية سطور صفحة ٤١ . ومعذرة .

ماری ستیوارت

المسرحية الخالدة للأديب الألمانى الكبير "فردريك شيللر"



شخصيات الرواية

(حسب ظهورهم على المسرح)

أمياس بوليه ، فارس : حارس مارى ستيوارت
جان كنيدى ، مربيتها
مارى ستيوارت ، ملكة اسكتلندا المعتقلة فى انجلترا
مورتيمير ، ابن أخ بوليه
جيليوم سيسيل ، بارون دى بورليج « مدير الشؤون المالية »
روبير دادلى ، كونت دى ليسستر
جيليوم دافيسون ، كاتم سر الدولة
الكونت دى كنت
اليزابيث ، ملكة انجلترا
جورج تالبوت ، كونت دى شريوسبورى
الكونت دى لوبسبين
الكونت دى بيلييفر ، مبعوث فرنسا فوق العادى
اوكيلى ، صديق مورتيمير
ضابط من ضباط الحرس
ميلفيل ، مدير الشئون الداخلية للملكة مارى
مرجريت كورل ، خادمة مخدع الملكة مارى
دروجون درارى ، الحارس الثانى للملكة مارى ستيوارت
الحاجب

الفصل الأول

غرفة فى قصر فازارنجهاى . على المسرح : جان كنيدى مربية ملكة اسكتلندا ، بوليه الذى يهم بفتح أحد الدواليب ، ودروجون درارى ، مساعده .

كنيدى : ماذا تفعل ؟ محاولة جريئة أخرى ! ابتعد عن هذه الخزانة .

بوليه : من أين جاءت هذه الحلية ؟ لقد ألقى بها من النافذة . لا بد وأنها رشوة للبستانى . لعنة الله على مكر النساء ! بالرغم من رقابتى ، وعلى الرغم من تحرياتى الشديدة ، ما زلتما تحتفظان بمواد ثمينة وخبايا دفينة . **(يهم بفتح الخزانة)** هذه الحلية لم تك وحيدة .

كنيدى : انصرف أيها الجسور ! لا تمس ودائع مولاتى .

بوليه : بل هى تماما ما أبحث عنه . **(يسحب أوراقا)**

كنيدى : أوراق عديمة الاهمية ، ان هى الا شروع فى مكاتبات بالفرنسية .

بوليه : لغة أعدائنا .

كنيدى : انها صور لخطابات موجهة لملكة انجلترا .

بوليه : سأحملها اليها . **(يدير محركا سريا ويخرج مجوهرات من أحد الادراج)** تاج ملكى ، مرصع بالحجارة الثمينة ، موشى بنقوش الحراب الفرنسية . **(يناوله لدرارى)** ارفقه بالبقية . **(يخرج درارى)**

كنيدى : يالها من معاملة دنيئة !

بوليه : طالما كان فى حيازتها أى شىء لم تجرد منه ، ففى وسعها أن تعمل على الايذاء . كل شىء ينقلب بين يديها الى سلاح فتاك .

كنيدى : كن طيبا ، يا مولاى . لا تحرمنا من هذه الحلية الاخيرة . هذه الذكرى البعيدة لعظمتها الغابرة ، تخفف أحيانا من حدة يأسها ، لم يعد لدينا سواها . لقد انتزعتم منا كل شىء !

بوليه : وهو فى الصون والامان . كل شىء سيرد اليكما بكل دقة فى حينه .

كنيدى : من ذا الذى يستطيع أن يتصور ، عندما يقع بصره على هذه الجدران العارية ، ان ملكة تعيش هنا ؟! سامن محفة تحف بمقعدها ! انها تمشى على أرض غليظة خشنة . الطعام يقدم لها على المائدة فى هيئة تستنكفها أقل النساء حسبا !

بوليه : هكذا كانت تعامل زوجها ، فى سترلنج ، بينما كانت تبادل عشيقها الشراب فى أقداح من الذهب الخالص !

كنيدى : لقد حرموها حتى من مرآة بسيطة !

بوليه : طالما كان فى وسعها أن تحدق فى صورتها الشامخة فانها لن تكف عن التعلل بالامل وأن تبلغ بها القحة كل مبلغ .

كنيدى : ما من كتاب تشغل به ذهنها !؟

بوليه : حسبها الكتاب المقدس تصلح به سريرتها .

كنيدى : حتى آلتها الموسيقية ، انتزعت منها !

بوليه : لأنها كانت تعزف عليها ألحانا غرامية ..

كنيدى : أيكونن هذا مصير امرأة ذات نشأة ناعمة ، تلك التى شبت فى مهدها ملكة ، ونعمت فى شبابها بكل المسرات ، مزهوة فى كنف بلاط آل مدسيس ! أما كان حسبها أن تجرد من سلطانها ؟ أكان لزاما أن تحرموها أيضا من هذه الكماليات البسيطة ؟

بوليه : لأنها لا فائدة منها الا توجيه قلبها نحو الغرور ، وخير لهذا القلب أن يعرف حقيقة قدره وأن يتجه الى طلب المغفرة . لا سبيل الى التكفير عن حياة الآثام الا بالحرمان والتواضع !

كنيدى : اذا كانت قد ارتكبت بعض الاخطاء وهى مازالت فى فجر شبابها ، فان هذا لا يتعلق الا بالله وبقلبها . ليس لأحد هنا أيا كان أن يصدر حكمه عليها !

بوليه : سوف تحاكم على جرائمها ..

كنيدى : جرائمها ! وكيف يتاح لها الاجرام وهى مثقلة بكل هذه الاغلال ؟

بوليه : مثقلة بكل هذه الاغلال ! ألم تتمكن من بسط جناحها الى أقصى العالم ، فكان لها أن أشعلت حربا أهلية ؟ أما وصلت الى تسليح السفاحين للفتك بمليكتنا ، حفظها الله ؟ أليست هى التى دفعت «بارى» و « بابنجتون » دون أن تبرح هذه الغرفة نفسها ، الى تدبير مقتل مولاتها !؟ هل حالت هذه القضبان الحديدية دون غوايتها لنورفلوك الكريم

النفس ، حتى أطاح سيف الجلاد بأنبل رأس فى هذا البلد ؟ انها لا تكف أبدا عن ارسال ضحايا جديدة الى المقصلة . وستظل الحال هكذا حتى الساعة التى يضحى بها هى نفسها ، مغمورة بذنوبها ، على ذات المقصلة . لعن الله اليوم الذى استقبلت فيه شواطىء هذا البلد الكريم ، هيلانة الجديدة هذه !

كنيدى : شواطىء هذا البلد الكريم ؟ يا للتعسة ! منذ اليوم الذى وطأت فيه قدماها هذه الارض – وهى منفية تتلمس فى ضراعة سبيلا الى حماية ابنة عمها – وجدت نفسها سجينة ، بغض النظر عن حقوقها الانسانية وهيبتها الملوكية . لقد قضت أجمل سنى شبابها كمن تجتاز مرحلة حداد طويلة ، وهى فى غياهب السجن !

بوليه : انما جاءت الى هذا البلد مجرمة منبوذة من شعبها، مخلوعة من عرشها لأنها دنسته بأشنع الآثام . جاءت لتقوض سعادة انجلترا ، لكى تبعث من جديد عهد مارى الاسبانية الدامى ، لكى تعيد انجلترا الى أحضان الكاثوليكية ثم تسلمها الى فرنسا . ما الذى حملها على رفض توقيع معاهدة (ادنبرة) ، والتخلى عن مطامعها فى العرش ؟ لو أنها فعلت ، لفتحت بنفسها أبواب سجنها بجرة قلم بسيطة . لكنها فضلت البقاء فيه . ما الذى حملها على ذلك ؟ انها كانت تعتمد على المؤامرات ، على نفوذ الاحزاب .. كانت تأمل أن تفتح انجلترا وهى قابعة فى أعماق هذا السجن !

كنيدى : انك تجنح الى السخرية ، يا مولاى . أكانت [illegible]

[illegible]

تعلل نفسها بهذه الاوهام ، وهى التى قضت حياتها يائسة بين الجدران !؟

بوليه : ما من جدران أو قضبان تحول دون تسرب مكرها الخبيث . ما أدرانى اذا كانت هذه الحواجز قد فقدت مناعتها ، واذا كانت أرض هذه الغرفة وجدرانها أصبحت دعائمها غير مزعزعة ، بحيث يتسرب منها الغدر ، بينما أغط أنا فى نومى ؟ الفزع يؤرقنى فى الليل ، فأهيم وكأنى روح ميت معذبة ، أتثبت من سلامة أقفال الابواب ، وأراقب الحراس .. وهكذا استقبل كل صباح وأنا أنتفض جزعا ، خشية أن تكون مخاوفى قد تحققت . ولكن ، حمدا لله ، فكل هذا سينتهى عاجلا !

كنيدى : ها هى ذى مقبلة ..

بوليه : الصليب فى يمينها ، والزهو والكبرياء يملآن قلبها !

(تدخل مارى ستيوارت وعلى رأسها غلالة ، والصليب فى يدها) .

كنيدى : **(مندفعة نحو مارى)** اننا نرزح تحت النعال ! القسوة والتعسف لا يقفان عند حد ، وكل يوم يقبل مفعما بآلام ومخازى جديدة .

مارى : هيمنى على مشاعرك . ما الذى حدث ؟

كنيدى : لقد اغتصبت محتويات خزانتك ، أوراقك ،

فى قبضة يده . لقد سلبوك فلم يبق لك من أثر يدل على أنك كنت ملكة !

مارى : هدئى من روعك ، جان . ليست هذه الكماليات هى التى تقيم الملك أو تسلبه . فى وسعهم أن يعاملونا معاملة منحطة ، ولكن ليس فى وسعهم أن يحطوا من قدرنا . لقد تعودت هنا على احتمال أشياء جديدة لا حصر لها ، يمكننى أن أصبر على احتمال هذا أيضا . (**الى بوليه :**) سيدى ، لقد انتزعت قسرا ما كنت أنوى أن أسلمك اياه بنفسى اليوم . توجد بين هذه الاوراق رسالة موجهة الى ابنة عمى ملكة انجلترا . عدنى أنك ستسلمها اياها ، وانها لن تقع بين يدى « بورليج » !

بوليه : سأفكر فيما ينبغى على أن أفعله ..

مارى : سأصارحك بما جاء فيها يا سيدى . أنى التمس فى هذه الرسالة تحقيق أمنية عزيزة على نفسى : أن أتحدث الى ابنة عمى . انى لم أرها مطلقا . لقد قدمونى الى محكمة لا ثقة لى برجالها ولا بقضائها . اليزابيث من نفس أسرتى ، من ذات جنسى ، من أصل مستواى . لها وحدها ، للأخت ، للملكة ، للمرأة ، أستطيع أن أفتح قلبى !

بوليه : كثيرا ، يا سيدتى ، ما أسلمت زمامك وشرفك الى رجال أقل منك اعتبارا !

مارى : كذلك ألتمس طلبا آخر ، تأبى الانسانية أن يكون موضع رفض : منذ زمن طويل وأنا محرومة من مدد الكنيسة وفضل القربان المقدس . ان التى سلبتنى تاجى وحريتى ،

والتى تهددنى حتى فى حياتى ، لن تقفل دونى أبواب السماء !

بوليه : تحقيقا لرغبتك ، فان الراعى ..

مارى : لا أريد راعيا . انى أطلب بالحاح قسا من قساوسة ديانتى . كما أطلب كاتبا وموثقا لتسجيل رغباتى الاخيرة . لقد نال منى الحزن وبرمت بشقاء هذا العيش . أصبحت أيامى معدودة .. انى أعتبر نفسى فى شبه احتضار .

بوليه : أخيرا ، هذه هى الخواطر التى تتجاوب مع موقفك .

مارى : ولا أدرى اذا كانت لن تمتد نحوى يد عجولة لحسم هذا العذاب . أريد املاء وصيتى والتصرف فى أملاكى .

بوليه : ذلك فى مقدورك ، فليس فى نية ملكة انجلترا أن تجردك من أموالك ..

مارى : لقد أبعدونى عن خدمى الاوفياء . أين هم ؟ ماذا صنعوا بهم ؟ فى وسعى أن أتجاوز عن خدمتهم ، ولكنى أريد أن أتحقق من أنهم لا يعانون العذاب ولا الحرمان .

بوليه : انهم موضع الاهتمام والرعاية . (**يهم بالخروج**)

مارى : انك ترحل يا سيدى وتتركنى من جديد ، دون أن تخلص قلبى من عذاب الشك والقلق . لقد انقضى شهر طويل رهيب على ذلك اليوم الذى فاجأنى فيه ، هنا فى هذا القصر ، هؤلاء الاربعون شرطيا ، وقدمونى ــ بلا محام ــ أمام أغرب محكمة فى الوجود !.. ثم أرغمونى على مواجهة تهم

باطلة لا قبل لى بهـا ، دون أن يتركوا لى فرصة الاستعداد لها . جاءوا ثم اختفوا بسرعة الاشباح . ومنذ ذلك اليوم التزم الجميع الصمت . أحاول عبثا أن أقرأ فى عينيك شيئا أظفر به ، أو ألمح أثرا للهفة أصدقائى وايمانهم ببراءتى ، أو أفهم شيئا من نوايا أعدائى الدنيئة .. فلتحطم ، فى النهاية ، هذا الصمت ولتقل لى ما ينبغى على أن أخشاه ، وما يمكن أن أتعلل به !

بوليه : توجهى الى ربك ، عساه يلهمك الجواب .

مارى : أنا لا أطمع الا فى غفرانه يا سيدى . أما قضـاء هذه الدنيا فانى أريده متناهيا فى العدالة .

بوليه : سيكون لك ما تريدين ، لا يساورنك فى ذلك شك .

مارى : هل أنتهت قضيتى يا سيدى ؟

بوليه : لا علم لى بذلك .

مارى : هل صدر ضدى قرار ؟

بوليه : سيدتى ، أنا لا أعلم شيئا .

مارى : انهم يميلون هنا الى سرعة انجاز الاعمال . أمن واجب الجلاد أن يفاجئنى كما فاجأنى القضاة ؟

بوليه : لك أن تتوقعى ذلك ، حتى يجدك أكثر استعدادا منك الآن .

مارى : لن أجد فى ذلك مدعاة للدهشة ، يا سيدى . انى أعرف مبلغ ما تستطيع محكمة فى (وستمنستر) تقوم على حقد « بورليج » وخسة « هاتون » أن تقدم عليه . ولكنى أعرف أيضا ما على أن تخشاه ملكة انجلترا !

بوليه : ان ملوك انجلترا لا يخشون الا ضمائرهم ومجالس نوابهم . والذى تقرره العدالة ، تتولى تنفيذه دون أن تحفل برأى العالم . **(يدخل مورتيمير ، ابن شقيق بوليه ، ويخاطبه دون أن يلتفت كلية الى الملكة)** .

مورتيمير : عمى ، انهم يبحثون عنك . **(يبتعد . الملكة تتجه - مستاءة - نحو بوليه الذى هم أن يتبع مورتيمير)** .

مارى : رجاء أخير يا سيدى . اعفنى من عجرفة هذا الشاب ومشاهدة أساليبه الجافية .

بوليه : ان سبب حقدك عليه هو سبب اعتزازى به . انه ليس من هؤلاء الاغبياء الذين يستضعفون أمام دموع النساء . لقد ظل قلبه وفيا لانجلترا . ان حيلك لن تنطلى عليه ، يا سيدتى . **(يخرج)**

كنيدى : لا أكاد أصدق أن هذا الفظ يستطيع أن يخاطبك بمثل هذه اللهجة !

مارى : لطالما أفرطنا - أيام مجدنا - فى الاستماع للمنافقين ، فمن العدل اذن يا كنيدى أن نستمع الآن الى صوت من يديننا ، مهما بلغت مرارته !

كنيدى : أمن الممكن أن يبلغ بك اليأس والانهيار الى هذا الحد !؟ .. مولاتى ، لقد كنت فى غاية الارتياح ! كنت أنت التى تواسيننى ، حتى انى كنت ألومك على قلة اكتراثك ، بدل حزنك ..

مارى : ها هو ذا يا كنيدى ! انى أعرفه .. انه شبح الملك « دارنلى » الدامى ، انه لن يكف أبدا عن ازعاجى !

كنيدى : لأى الأوهام تستسلمين !؟

مارى : اليوم ذكرى هذا الحادث الذى قدر لى أن أكون بطلته .

كنيدى : اطردى هذا الخاطر المزعج . لقد كفرت عنه بسنوات من الندم والعذاب . لقد عفت عنك الكنيسة والسماء .

مارى : ان القربان المقدس لا حول له أمام شبح زوج يسعى للانتقام .

كنيدى : انك لم تقتليه بنفسك . لقد قام غيرك بتنفيذ الجريمة .

مارى : وما كنت لأجهل ذلك . لقد استدرجت دارنلى الى الشرك بخيانتى له !

كنيدى : كان لك من شبابك ما يخفف وقع زلتك . كنت لا تزالين طفلة . كنت قدانتشلت دارنلى من الظلام ، ووليته العرش . وهبته حياتك وملكك . أكان يحق له بعد ذلك أن ينسى أنه مدين لك بهذا الحظ الباهر ، وأن كل ما ناله ليس الا من فيض حبك ؟ ومع ذلك ، فقد نسى . لكم أهانك بشكوكه المزرية ، بأساليبه الفظة . أما قتل « ريزيو » ، رفيقك ونديمك ، على مرأى منك ؟ لقد انتقمت بالدم لهذه الفضيحة الدامية ، هذا كل ما كان منك !

مارى : سوف ينتقم له بالدم هو أيضا . محاولة عزائك لى ، فيها كل ادانتى .

كنيدى : ما كنت صادرة عن نفسك عندما سمحت بوقوع

هذه الجريمة . لقد كنت مسلوبة الارادة . « بوثويل » كان مهيمنا عليك بكل ارادته الخبيثة . لقد أغواك برحيق حبه ، فسحرك !

ماري : لم يك سحره الا مظهر قوته ، وانعكاس ضعفي ..

كنيدي : كلا . لا بد وأنه كان يستعين بأبالسة الجحيم كلهم لكي يعمي بصيرتك الى هذا الحد . ما كنت لتصغي الى تحذير صديقتك . ما كانت حمرة الخجل تعرف اليك سبيلا ، حتى زالت عنك فضيلة الاحتشام . لقد انتصر هذا الرجل على كل شيء فيك ، حتى مظهر حيائك . لقد كنت تتباهين بنشوة عارك في شبه تحد . لقد تركته يحمل عابثا سيف اسكتلندا الملوكي في شوارع (ادنبرة) ، مزهوا ، أمام عينيك .. هو ، القاتل الذي استحق لعنة الشعب . لقد حاصرت مجلس النواب بالرجال المدججين بالسلاح ، وفي رحاب هيكل العدالة هذا ، أرغمت القضاء على الحكم ببراءة القاتل ، حتى لقد ..

ماري : هات ! أكملي ! حتى لقد وهبته نفسي أمام الله .

كنيدي : ليت صمتا أزليا يخمد الى الابد هذه الفعلة التي لا تصدر الا عن امرأة هالكة . وما كنت بالمرأة الهالكة ، على الرغم من ذلك . اني أعرف قلبك . انه يجيش بالرقة . أكرر عليك ، هنالك أرواح شريرة تستولي على النفس ، وتغمرها بأشد الرذائل ، ثم تولي هاربة الى أعماق الجحيم ، تاركة اياها فريسة الانحطاط والفزع . استعيدي شجاعتك . عودي الى صفاء نفسك . ليس لاليزابيث ، ولا لمجلس نواب

بريطانيا ، أى حق فى محاكمتك . أنت هنا فى معقل الضيم ، ولا بد لك من مواجهة هذه المحكمة الباغية بكل ما تبعثه فيك براءتك من قوة ! (**يبدو مورتيمير**) .

مورتيمير : (الى كنيدى) تنحى . راقبى الباب . لدى ما أقوله للملكة .

مارى : ابقى هنا .

مورتيمير : لا يساورنك أى خوف يا سيدتى . سأكشف لك عن نفسى . (**يقدم لها ورقة . تنظر اليها مارى وتتراجع فى دهشة**) .

مارى : ما معنى هذه الورقة ؟

مورتيمير : (الى كنيدى) هيا ، واحرصى على أن لايفاجئنا عمى .

مارى : (الى كنيدى التى تتردد وتنظر الى الملكة فى حيرة) اذهبى وكونى على حذر . **(تبتعد كنيدى)** رسالة من فرنسا . من عمى الكردينال دى لورين ! (**تقرأ**) .

« ضعى ثقتك فى السيد مورتيمير الذى سيسلمك هذه الرسالة . ليس لك فى انجلترا صديق أوفى منه » (**تنظر الى مورتيمير فى ذهول**) أممكن هذا ؟ أليس هذا وهما ؟ ظننت أن الجميع قد تخلوا عنى ، فاذا بى أجد صديقا أقرب مايكون منى !

مورتيمير : (وقد ألقى بنفسه عند قدمى مارى) اغفرى لى يا صاحبة الجلالة هذا الوجه المستعار ، الذى

طالما أذلني استعماله ، ولو أن الفضل له فى امكان التقرب اليك لمساعدتك !

ماري : انهض . فأنا لا أستطيع أن أنتقل هكذا سريعا من أعماق الحزن الى قمة الفرح . تكلم ، يا سيدى . أوضح لى سر هذا الحظ الذى هبط على !

مورتيمر : اسمحى لى أولا أن أبرر تصرفى . كنت فى العشرين من عمرى ، يا صاحبة الجلالة ، وكنت فد لقنت منذ نشأتى كراهية البابابوية ، فاذا بى أجد نفسى مدفوعا بفضول غريب نحو القارة . نزحت عن وطنى ، عبرت فرنسا، ثم وصلت الى ايطاليا ، وقد اتفق أن كان ذلك فى عيد الغفران . كانت الطرق مزدحمة بالحجاج ، وكأن الانسانية بأسرها يتجه موكبها الى السماء .. واجتذبتنى موجة المؤمنين ، فانخرطت بينهم ، الى أن وجدت نفسى على أبواب روما . آه ! يا صاحبة الجلالة . أى تحول طرأ على نفسى ، أى ذهول مشرق بعثته فى عظمة الآثار . لقد غمرتنى نشوة سامية . كنت لا أعرف صولة الفن قبل ذلك. كانت الكنيسة التى تلقيت تعاليمها تنكر كل ما يبهر المشاعر . تستبعد الصورة ولا تمجد الا الصوت الاجوف . أى شعور انتابنى وأنا أدلف الى المحراب حيث تنبعث أنغام سماوية ويشع جلال محتوياته : البشارة ، مولد المسيح ، الأم المقدسة ، الثالوث الاقدس ، تجلى المسيح الرائع ، ولا سيما عندما شاهدت البابا يقيم القداس ويبارك جميع شعوب الارض . ان الذهب ، والحجارة الكريمة التى تزين هامة الملوك ،

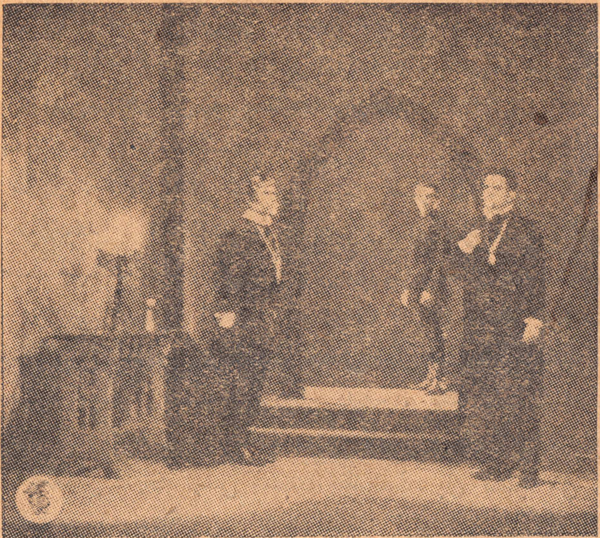
تتضاءل أمام جلال هذا المظهر. أما هو فتحيط به وحده هالة ربانية . وأما مقامه فملكوت السماوات .

ماری : أعفنی ! حسبك أشادة بنشوة الحياة ومباهجها . فما أنا الا سجينة .

مورتيمير : هكذا كنت أنا أيضـــا ، يا صاحبة الجلالة ! ولكن سجنى قد انهار فجأة ، استرد عقلى حريته . منـذ ذلك اليوم ، ضعف ايمانى بالتوراة ، انضم الى عدد كبير من نبلاء اسكتلندا ، كما التف حولى جمـــاعة من الفرنسيين وقدمونى الى عمك الكردينـــال دى لورين . يا له من رجل جدير بالاعجاب ! شديد الثقة بنفسه ، نقى السريرة ، خلق ليمتلك النفوس. انه رجل دين مثالى ، أمير من أمراء الكنيسة لم أصادف فى حياتى مثله !

ماری : أما وقد رأيت وجه هذا الرجل العزيز الذى رافق شبابى ، فلتحدثنى عنه .. هل مازال يذكرنى ؟

مورتيمير : على يديه غيرت عقيدتى الخاطئـــة . وعندما استدعته أعباء واجباته الى فرنسا ، أرسلنى الى (ريمس) حيث كانت جماعة يسوع تعد الكهنة للكنيسة البريطانية . هناك التقيت بالنبيل «مورجان» وصديقك الوفى «ليسلى» ، الاسقف العالم . وبينما أنا فى حضرته ذات يوم ، اذ بصورة أخاذة لامرأة نادرة الحسن ، تقع تحت بصرى ، وتأخذ على كل مشاعرى . وازاء عجزى عن السيطرة على اضطرابى ، ظل بصرى شاخصا اليها . واذا بالاسقف يقول لى : « انى أفهم اضطرابك . هذه أجمل امرأة بين النساء ، ولكنهـا فى



(« جان موفيه » و « فيليب كيليرسون » فى دورى « امياس بوليه » و « البارون بوليج » ، عندما قدمت هذه الرواية ـ لأول مرة ـ على مسرح « لوموريه » بباريس عام ١٩٥١) .
بورليج : انها تحتقرنا ، وستظل تحتقرنا وهى أدنى ما تكون من المقصلة ! (الفصل الأول)

الوقت نفسه أول شهيدة من شهداء عقيدتنا ! »

مارى : يا للقلب الكبير ! اذن فأنا لم أفقد كل شىء ، مادام لى صديق مثله ، يذكرنى فى غمرة الشقاء .

مورتيمير : وفى يقين عميـــق بالغ ، أخـذ يكشف لى عن تضحيتك وقســـوة أعدائك . أوقفنى على أصل محتـدك المنحدر من سلالة آل تيودور . وأقنعنى بأنك وحدك ، صاحبة

الحق فی المطالبة بعرش انجلترا ، وليست تلك المغتصبة ، وليدة الزنا ، كما اعتبرها أبوها نفسه !.. وأنا أعلم الآن أن حقك الثابت هو كل جريمتك ، وأن هذه المملكة التی سجنوك فيها ، ما هی الا مملكتك .

ماری : هذا الحق المشئوم ! أنه أصل كل بلائی .

مورتيمير : عند ذلك علمت أنهم رحلوك عن قصر (تالبوت) وأنك أصبحت تحت حراسة عمی . فأيقنت أن هذه المصادفة قد ساقتها العناية الآلهية لمناصرتك ، وأن القدر يرشحنی ويناديني لانقاذك ، فرسمت خطتی سريعا وسلكت طريق انجلترا حيث وصلت منذ أيام قليلة . عند ذلك شاهدتك ، يا صاحبة الجلالة ، أنت نفسك ، لاصورتك . أی كنز يحوی هذا القصر ؟! انه ليس سجنا مظلما ، بل قصرا من قصور الفردوس أشد تلألأ من بلاط انجلترا . لكم أدرك السبب الذی جعل اليزابيث تمعن فی اخفائك ! فلسوف يتمرد شباب انجلترا بأسره . ولن يبقى سيف واحد فی غمده ، لو عرف الانجليز من هی مليكتهم الحقيقية !

ماری : تباركت السماء .. ليت كل الانجليز يروننی بعينيك !

مورتيمير : كل شیء ينقصك ومع ذلك فبهاؤك يبعث اشراقة الحياة . مامن مرة وطأت عتبة هذا الباب دون أن يتمزق قلبی ودون أن تأخذنی النشوة لمرآك !.. بيد أن اللحظة الحاسمة قد دنت ، الخطر يستفحل بين كل دقيقة وأخری . ولن أقوی علی أن أكتم عنك بعد الآن ..

ماری : هل صدر الحكم على ؟ قل ، يا سيدى . أنا على استعداد لسماع أى شيء !

مورتيمير : نعم ، لقد صدر . أجمع الاثنان والاربعون قاضيا على ادانتك . مجلس اللوردات وكذلك مجلس العموم وكل مدينة لندن يلحون فى طلب تنفيذ العقوبة . الملكة وحدها هى التى ما زالت مترددة ، لا عن عطف أو أمل فى العفو عنك . ولكن لكى تتعلل بأنها كانت مغلوبة على أمرها !

ماری : (بهدوء) أيها السيد مورتيمير ، انك لاتدهشنى . كنت أتوقع هذا الخبر منذ مدة طويلة . انى أعرف قضاتى ، كما أعرف هدفهم . يريدون أن أترك الى الابد فى هذا السجن المظلم . وبذلك يدفنون معى ، فى غياهب هذا السجن ، حقى فى الثأر وحقى فى الملك .

مورتيمير : لا ، يا صاحبة الجلالة ، لا . لن تكون هذه وجهتهم . لا بد وأن يأخذ الظلم مجراه حتى النهاية ، السجن لا يكفى للقضاء عليك . موتك وحده هو الذى يكفل الامان لعرش اليزابيث .

ماری : أو تجرؤ اليزابيث على أن تطيح برأس متوج ؟ أتجرؤ على ارتكاب هذه الحماقة ؟

مورتيمير : سترتكبها . لا يخامرنك فى ذلك أى شك !

ماری : أتستطيع أن تمرغ فى الوحل ، شوكتها هى بنفسها ، شوكة جميع الملوك ؟ لا ! أنها ستخشى ولا بد انتقام فرنسا .

موريتمير : لقد عقدت الصلح مع فرنسا ، وهي تعرض على دوق « دانجو » يدها وعرشها .

ماري : سيهب ملك أسبانيا الى السلاح .

موريتمير : لو هب العالم كله الى السلاح فلن يخيفهـــا ذلك ، ما دام شعبها يعضدها .

ماري : وهل تقــدم على دعوة رعاياها لمشاهدة هــذه المأساة ؟

موريتمير : لقد شهد هذا البلد أكثر من ملـكة تنزل عن عرشها لتصعد الى المقصلة ، أم اليزابيث نفسها : « كاترين هوارد » ، و « ليدى جراى » تبعت احداهما الاخرى في هذا الطريق .

ماري : (**بعد فترة صمت**) كلا ، يا مورتيمير ، أن خوفا لا مبرر له يفقدك توازنك . ليست المقصلة هي التى أخشاها . ان من تحكم انجلترا تملك وسائل أخرى أشد حرصا وتكتما ، تستطيع أن تخمد بها جذوتى . وقبل أن يجيء دور الجلاد سيجيء دور القاتل . هذا ما ترتعد له فرائصى .

موريتمير : لن يعتدى أحد على حيـــاتك ، لا سرا ، ولا علانية .. كل شيء ممهد . لقد انضم الى اثنا عشر نبيلا من شباب انجلترا ، ولقد أقسموا هذا الصباح بالذات ، أمـام المحراب المقدس ، على أن يخرجوك عنوة من هذا السجن . وان الكونت دى لوبسبين ، مبعوث فرنسا ، لعلى علم بخطتنا ، ويرحب بها . بل وفي قصره نعقد اجتماعاتنا ..

ماري : انك تخيفنى يا سيدى . أتدرك جيـــدا ما أنت

مقدم عليه ؟ هلا وجدت عبرة فى رأسى « بابنجتون » ، و « تشيبورن » ، المعلقين وما زالت تنزف منهما الدماء ؟.. ألا يخيفك مصير الموت الذى لقيه كل من حاول نفس المحاولة المتهورة ، التى لم تكن الا لتزيد من ثقل أغلالى ؟ تنح عن هذا الطريق ، أيها الشاب التعس ، اهرب ! اهرب اذا كان لا يزال فى الوقت متسع .. اذا كانت جواسيس « بورليج » لم تكشف موقفكم بعد ، اذا لم يكن قد اندس بينكم خائن بعد . ارحل عن هذا البلد ، حالا ! ما كانت مارى ستيوارت الا جالبة للشؤم على الدوام .

مورتيمير : ان رأسى بابنجتون وتشيبورن الداميين ، وهلاك كل من أقدم على نفس المحاولة الجريئة ، لا يخيفنى . لقد جنوا من وراء ذلك مجدا خالدا ، بل وفرحة الموت فى سبيل انقاذك .

مارى : لا فائدة من ذلك . لن ينقذنى العنف ولا الخداع . العدو ليس بغافل والقوة فى جانبه . ليس هو بوليه وجنوده فقط من يحرسون أبواب سجنى ، بل هى كل انجلترا ، ارادة اليزابيث وحدها تستطيع أن تفتح أبواب هذا السجن .

مورتيمير : لا تؤملى فى ذلك أبدا .

مارى : ليس هناك سوى رجل واحد يستطيع أن يخلصنى .

مورتيمير : ومن هو ؟

مارى : الكونت دى ليستر .

مورتيمير : الكونت دى ليستر ؟ أشد أعدائك حنقا عليك ؟.. أقرب المقربين لاليزابيث ، تنتظرين منه ..؟

مارى : اذا كان لأحد أن ينقذنى ، فلن يستطيع ذلك سواه. فلتسع اليه . صارحه بالحقيقة . ولكى تبرهن له أنك موفد من قبلى ، ماعليك الا أن تسلمه هذه الرسالة وهذه الصورة. **(تخرج رسالة من بين طيات صدرها . يتردد مورتيمير فى تناولها)** انى أحملها منذ زمن طويل ، لكن شدة رقابة عمك منعتنى من توصيلها . ان ملاكى الحارس هو الذى قيض لى لقاءك .

مورتيمير : أفصحى لى عن هذا اللغز يا صاحبة الجلالة .

مارى : سيوضحه لك ليستر . اركن اليه ، فيركن اليك .

كنيدى : **(التى تدخل مندفعة)** السيد بوليه قادم مع أحد رجال البلاط . **(يختفى مورتيمير من باب خفى ، تتبعه جان كنيدى . ثم يدخل اللورد بورليج مدير الشئون المالية ومعه بوليه)** .

بوليه : كنت تريدين أن تقفى على مصيرك . لقد جاء فخامة اللورد بورليج ليتحدث اليك فى هذا الشأن .

بورليج : سيدتى ، انى موفد من قبل المحكمة .

مارى : لورد بورليج ، انك خير من يمثل هذه المحكمة ، فأنت تؤيدها بصوتك وارادتك .

بوليه : تتكلمين وكأنك متنبئة بالحكم !

مارى : أما وأنت النذير به ، فانى أعرفه سلفا . فلنطرق الموضوع يا سيدى .

بورليج : سيدتى ، لقد فوضت أمرك لهيئة المحكمة .

مارى : أنت تزعم أنى فوضت أمرى الى المحكمة . وهذا زعم باطل ! فما كنت لأقبل التنازل عن هيبتى الى هذا الحد، أو أضحى بكرامة شعبى ، أو سمعة ولدى وغيره من الامراء. ان القانون الانجليزى يجيز لكل متهم أن يطلب محاكمته أمام هيئة من أنداده . فأين هم أندادى فى هـذا التشكيل ، وأنا التى ليس لى من ند سوى الملوك ؟!

بورليج : لقد استمعت الى هيئة الاتهام وأدليت بأقوالك أمام المحكمة .

مارى : أدليت بأقوالى فى هذه التهم بقصد تفنيدها والدفاع عن شرفى .

بورليج : سواء اعترفت بهذه المحكمة ، يا سيدتى ، أم لم تعترفى ، فهذا لا يمنع العـدالة من أن تأخذ مجراها . انك تعيشين فى انجلترا وتتمتعين بحمـاية قوانينها ، اذن فأنت خاضعة لشريعتنا .

مارى : أنا نزيلة السجن ، أهذا ما تعنيه بالاقامة فى انجلترا والتمتع بحماية قوانينها ؟.. أنا لا أعرف عن هذه القوانين الا القليل ، ولم ألتزم يوما بمراعاتها .. فأنا لست من رعايا هذه المملكة ، وانما أنا ملكة حرة لبلد أجنبى .

بورليج : أو تعتقدين أن الهيبة الملكية تخول لك اثارة حرب أهلية ، دون أن تنالى جزاءك ؟ ما عساه يحل بالدولة وأمنها

لو عجزت العدالة عن مطاردة أجنبى مذنب . ســـواء أكان ملكا أو متسولا ؟

مارى : أنا لا أتهرب من العـــدالة . ولكنى أعترض على قضائكم .

بورليج : قضاؤنا ! وكيف ذلك يا سيدتى وقضاتنا كلهم أصحاب مقام رفيع فى الدولة ؟ ان شخصياتهم المستقلة لتتيح لهم أن يعبروا عن مشاعرهم دون أن يخشوا حـكامهم ، أو يتطرق الفساد الى ضمائرهم . لقـد اختارت ملكة انجلترا أنبل رجالها وجعلت منهم قضاة هذا النزاع الملكى ، فهل كان فى وسعها أن تفعل خيرا من ذلك ؟ وعلى فرض أن بعضهم تأثر بأية عوامل سياسية ، فهل كان يجوز لهذه النخبة أن تتفق على رأى واحد ، وبهذا الاجماع ؟

مارى : لوكان اللوردات حقا على هذه الصورة التى تصفها ، وأجمعوا على ادانتى ، لانتهى أمرى بالاذعان لقضائهم . ولكن من دواعى الاسف أن هؤلاء النبلاء الذين تمجدهم على هذه الصورة ، قد تعددت ألوان الادوار التى لعبـــوها فى تاريخ انجلترا . هذه المقامات الرفيعـــة ومجلس الشيوخ الموقر هذا ، هم الذين كانوا يزيفون على أنفسهم ، وفى ذلة العبيد ، نزوات هنرى الثامن .. وهذا المجلس الموقر الذى لا يبزه الا مجلس النواب فى خضوعه لأوامر أسياده ، قد ناقض نفسه ، فسن — ثم ألغى — نفس القوانين التى كان يصـــدرها .. وأجاز ثم فسخ عدة زيجات بعينها .. وتوج أمراء كان هو الذى وصمهم بأنهم أبناء غير شرعيين . وابان حكم حكومات

أربع غير هؤلاء النبلاء الاشراف ديانتهم أربع مرات متوالية !

بورليج : تقولين أنك غريبة عن قوانين انجلترا ، بيد أنك على علم تام بمآسيها !

ماري : أيها السيد ، يا مدير شؤون الدولة المالية ، أنا من ناحيتى أريد أن أكون عادلة نحوك ، فكن من ناحيتك عادلا نحوى . يقولون انك تحب وطنك ، ومليكتك ، وانك عف النفس ، حاضر الذهن ، شديد المراس .. أنا أيضا أعتقد ذلك ، وأعلم أن ليست المنفعة الشخصية هى التى توجهك ، بل مصلحة الوطن والملكة . لهذا السبب نفسه يتعين عليك أن لا تخلط بين مصلحة الوطن والعدالة فى حد ذاتها . ان ساحتك لا تخلو من رجال مخلصين من بين قضاتى هؤلاء ، لا يتطرق الى الشك فى أمرهم . لكن هؤلاء من البروتستانت، وهم يحاكمون ملكة اسكتلندا التى تنتمى الى شيعة البابا . وكما يقول المثل القديم : « ليس لانجليزى أن يكون عادلا مع اسكتلندى » ! .. وهذا هو السبب الذى سلب منذ الازل حق الانجليزى فى الادلاء بشهادة ضد اسكتلندى ، كما هو حال الاسكتلندى بالنسبة للانجليزى . والواقع أن هذه الشريعة الغريبة ، كانت ضرورة لا بد منها . لقد شاءت الطبيعة أن تضم هذين الشعبين الثائرين فى جزيرة واحدة عبر المحيط . ولما كانا متنافرين فى الطباع ، فقد قدر عليهما التناحر ، وهما اللذان لا يكاد يفصل بينهما سوى مجرى نهر (التويد) . لقد طالما اختلطت فى مياهه دماء أبناء الجانبين ، منذ ألف عام .. كان بعضهم يتربص

بالبعض من كل صوب شاكى السلاح ، بحيث كلما هم عدو من أعداء انجلترا بمهاجمتها ، انضم اليه الاسكتلنديون ، وفى كل مرة تندلع فيها نار حرب أهلية فى اسكتلندا ، تكون انجلترا هى التى تشعل فتيلها .. ولن ينطفىء سعير هذا الحقد الا يوم يحكم الجزيرة كلها ملك واحد !

بورليج : أتكون مارى ستيوارت هى التى ستجاب للمملكة هذه السعادة ؟

مارى : ولم لا ؟ أعترف بأنى فتحت باب الامل لاتحاد هذين الشعبين حتى يستطيعا أن يعيشا فى سلام وحرية ووئام . وما كنت أعتقد أنى سأكون فريسة حقدهما . كنت أعلل نفسى بأنى سأخمد الى الابد هذا الحسد القديم وأقضى نهائيا على هذا العداء المستحكم . لقد حاول جدى « ريتشموند » أن يجمع شمليهما بعد حرب دامية ، فأردت أن أحذو حذوه .

بورليج : لقد سلكت أسوأ سبيل للوصول الى هذه الغاية، ما دامت الحرب الاهلية هى سبيلك الى العرش .

مارى : أنا لم أحاول هذه المحاولة ، أشهد الله على ذلك. متى حاولت ذلك ؟ ليس لديك أى دليل .

بورليج : أنا لم أحضر الى هنا لاقامة الادلة . القضية لم يعد يجدى فيها الجدل . لقد أقر أربعون صوتا ، ضد صوتين ، بأنك انتهكت قرار مجلس النواب فى الدورة الماضية وانك بذلك تستحقين تطبيق القانون بشدة . واليك صيغة هذا القانون : « اذا حدثت في المملكة فتنة في سبيل شخص ،

أو عن طريق ادعائه بحقوق له فى العرش ، فان هذا الشخص يقع تحت طائلة القانون ويكون جزاؤه الموت» . وحيث أنه من الثابت ..

مارى : لورد بورليج ، أنا لا أشك فى أن قانونا ـ صدر خصيصا من أجلى وشرع فى سبيل هلاكى ـ لا بد أن ينتهى الى مرحلة التطبيق حتى يحقق الفرض من صدوره . هل فى وسعك أن تنفى أن هذا القرار لم تنسق مواده الا للقضاء على ؟

بورليج : لقد كان بمثابة تحذير لك ، فاذا بك تنصبين لنفسك منه فخا . لقد بدت الهوة سحيقة تحت قدميك ، فاندفعت اليها مستخفة رغم شدة الحراسة عليك ، لقد شجعت بابنجتون وأعوانه ، ورغم تقديرك لخطورة جرمهم . توليت من أعمق أعماق سجنك قيادة المؤامرة .

مارى : متى فعلت ذلك ؟ الى بالادلة .

بورليج : لقد قدموها اليك أمام المحكمة .

مارى : أن هى الا صور نسختها يد دخيلة ، فليقيموا الدليل على أنى أنا التى أمليتها ، أمليتها بالصيغة التى قرئت بها .

بورليج : لقد اعترف « بابنجتون » قبل موته بأنها نفس الرسائل التى وصلت اليه .

مارى : ولماذا تغاضوا عن مواجهتنا ؟ وما الذى دعا الى هذه السرعة فى اعدامه ؟

بورليج : لقد أقسم وكلاؤك اليمين على أنهـــا هى نفس الرسائل التى أمليت صيغتها بنفسك .

مارى : انكم تعتمدون فى محاكمتى على أقوال أتباعى وعلى ما يقرره الخونة !

بورليج : لقد زكيت أنت نفسك واحدا منهم ، هذا المدعو « كورل » الاسكتلندى ، ووصفته بأنه رجل شريف !

مارى : لعل التنكيل به قد نال من عزيمته ، فظن أنه قد يستطيع انقـــاذ نفسه بيمين كاذبة ، دون أن يسيىء الى فى قليل أو كثير .

بورليج : لقد حلف كورل اليمين ، فى جو يكفل له الحرية التامة .

مارى : ولكن فى غير مواجهتى . هذان الشاهدان لايزالان على قيـد الحياة ، فليجيئوا بهمـا ليرددا شـهادتيهما فى محضرى . لماذا يأبون على حقا مكفولا لأخس المجرمين ؟ علمت من اللورد تالبوت أن حكومتكم سنت قانونا يقضى بمواجهـة المتهم بمن يدعى اتهامه . أيها السيد بوليه ، أنت فى نظرى رجـل شريف ، فلتبرهن لى الآن على ذلك . أليس هـــذا صحيحا ؟ أليس هذا القانون قائما ؟

بوليه : انه قائم فعلا ، ومن واجبى أن أقرر الحقيقة .

مارى : ماداموا يستغلون بطش القانون الانجليزى لالحاق الظلم بى ، فلماذا يتجاهلون عدالته عندما تكون فى صالحى ؟

بورليج : لا تحتدى ، يا سـيدتى ، ان مؤامرة بابنجتون ليست هى الباعث الوحيد ..

ماري : بل هي الباعث الوحيد الذي يعرضني لعقوبة القانون ، كما انه الوحيد الذي يتعين على أن أبرىء نفسي منه . لورد بورليج ، لنتكلم عن الوقائع ، لا تحاول التنصل .

بورليج : من الثابت أنك شرعت في الاتصال بمندوزا ، سفير أسبانيا .

ماري : لا تتهرب ، يا لورد بورليج .

بورليج : من الثابت انك اعتزمت مناوأة ديانتنا ، وأنك حفزت جميع ملوك أوروبا على محاربة انجلترا .

ماري : أنا لم أقدم على هذا ، ولكنى أفترض جدلا انني أقدمت عليه !.. انهم يلقون بى فى السجن هنا لسلب حقوقى ، ويستبيحون فى معاملتى كل ما هو شاذ . ان ضميرى وعزة نفسى ليحولان بينى وبين الجريمة . والجريمة نفسها على ما فيها من عار ، لا تستوجب ادانتى أو تقديمى الى المحاكمة . لا يمكن بحال أن تنازعنى انجلترا فى حقوقى !

بورليج : لا تتصدى ، يا سيدتى ، لمن كان أقوى منك نفوذا . ان هذا لا يجدى مع المساجين .

ماري : أعلم اننى أضعف جانبا ، فلتلجأ اليزابيث الى القوة ! فلتحاول القضاء على ! فلتضحى بى فى سبيل راحتها! ولكنها ستسلم عند ذلك حتما بأنها استغلت سلطانها . لن يزودها القانون بالسلاح لكى تتخلص من عدوتها . وحينئذ لن تستطيع أن تخفى جرأتها الوحشية ، أو أن تخدع أحدا بأساليبها التهريجية . ليس لها ان تتعلل بأنه فى مقدورها

أن تضفى على الجريمة طابع الفضيلة وقدسيتها . ليتهـــا تجرؤ على أن تبدو سافرة على حقيقتها ؟ **(تخرج)** .

بورليج : انها تحتقرنا ، وستظل تحتقرنا وهى أدنى ماتكون من المقصـــلة . لا شىء يستطيع أن يحطم كبرياءها . حتى مجرد الدهشة لقرار المحكمة لم يبد عليها . انها لم تسكب دمعة واحدة . انها تعلم أن الملكة تتردد ، وهكذا تستمد مارى ستيوارت صلابتها من ضعفنا .

بورليه : مولاى وزير المال ، ان هـذه العجرفة ستختفى بسرعة اذا قضينا على أسبابها . لقد وقعت فى هذه القضية، اذا حق لى القول ، بعض مخالفات للقانون . كان لا بد من مواجهة مارى ســـتيوارت ببابنجتون وتشيبورن ، وكذلك بوكلائها .

بورليج : كان لا بد من تحاشى هذه المخاطرة . ان لدشقية على القلوب سلطانا شديدا ، ودموعها لها سطوة خطيرة ، لو أن وكيلها كان قد مثل أمامها ، وكان عليه أن ينطق بالكلمـة التى تتوقف عليها حياة سيدته ، لغير رأيه ونقض شهادته لا محالة !

بورليه : سيروج أعداء بريطانيا فى جميع أنحاء العالم أحط الاشاعات ، ويكشفون عما فى القضية من مغامز معيبة .

بورليج : لم لم تمت هذه المرأة المشئومة قبل أن تصل الى انجلترا ؟

بوليه : يا ليتها !

بورليج : لم لم تقع فريسة للمرض ههنا !

بوليه : لو حدث شيء من هذا لأعفت البلاد مما جلبته لها من المصائب .

بورليج : وحتى لو أنها ماتت ميتة طبيعية ، لاتهمونا باغتيالها . كل ما فى الامر أنهم كانوا سيعجزون عن اقامة الدليل ، وفى هذا تخفيف لحدة الجلبة .

بوليه : وماذا يهمنا من الشائعات ، اذا لم تكن قائمة على أساس ؟!

بورليج : الرأى العام يقف غالبا فى صف المغلوبين ، ويرمى الظافرين بالحسد . انه يكره أن يرى زمام العدالة فى غير يد الرجال ، وهو لا يؤمن بانصاف المرأة للمرأة . بل ولا قيمة لحكم القضاة فى نظره مهما كان عادلا . وهو لذلك ينتظر من الملكة أن تستعمل حقها فى اصدار العفو . ومن هنا يستحيل عليها أن تسمح بتطبيق القانون على صرامته ..

بوليه : وفى هذه الحال .. ؟

بوليج : فى هذه الحال يكون خلاص مارى ستيوارت !.. كلا ، لا بد لها أن تموت ، وهذا ما يثير قلق الملكة . انى أقرأ فى عينيها ما تعجز شفتاها عن النطق به .. وكأنها تقول لنفسها : « ألا يوجد بين كل أتباعى من يستطيع أن يحمل عنى عبء هذا الاختيار الثقيل ؟ هل سأظل الى الابد قلقة على هذا العرش ، أم يتعين على أن أسلم الملكة ابنة عمى الى سيف الجلاد ؟ »

بوليه : لا مفر من الاختيار ، فاما هذا أو ذاك .

بورليج : الملكة تعتقد أنه قد يستطيع من هو أكثر حذقا بين أتباعها أن يجد حلا .

بورليه : أكثر حذقا ؟

بورليج : أجل . ممن يفهمون صيغة الاوامر المرنة .

بوليه : الاوامر المرنة ؟

بورليج : أجل ، بمعنى انه اذا اسندت لأحدهم حراسة حية رقطاء ، فليس له أن يبالغ فى المحافظة عليها كما لو كانت كنزا ثمينا .

بوليه : ان سمعة مليكتنا يا مولاى ، لهى أحق المكنوز بالمحافظة عليها .

بورليج : عندما انتزعت مهمة حراسة مارى ستيوارت من « شريوسبورى » وأسندت اليك ، كنا نظن ..

بوليه : كنت أرجو يا مولاى أن لا يخيب ظنكم فى أن أدق المهام قد أصبحت وديعة بين أعف الايادى . أشهد الله على انى ما كنت لأقبل هذه المهمة القاسية لولا اعتقادى بأنها تتطلب كل الامانة ، وانها لم تسند الى الا لتمسكى بشرفى .

بورليج : كان فى الامكان أن يشاع أن الوهن قد دب اليها، وأن حالتها تسوء من سيىء الى أسوأ ، وأنها استسلمت لقضاء الله .. كان النسيان سيخيم على سيرتها وتصبح سمعتك بعيدة عن الشبهات .

بورليه : أما عن ضميرى ، فلا !

بورليج : اذا كنت لا تريد أن تتدخل بنفسك ، فانك لن تمنع غيرك من ..



(« امياس بوليه » مع « مورتيمير » الذى يقوم بدوره « رايمـــــوند هيرمانيتيه »

بوليه : ان أسرتنا لا تدين للبلاط بما نالته من ألقـــاب الشرف . اعتدل فى رد الجميل للملكة . (الفصل الثانى)

بوليه : طالما هى باقية فى رعاية الله ، لن ينفذ الى هـــذا المكان مغتال . ان حياتها لا تقل مكانة فى نفسى عن حيـــاة مليكتنا . أنتم قضاة ، احكموا ، اصدروا أمرا باعدامهـــا . وعندما تحين الساعة ، انصبوا المقصلة ، فلن تفتح أبواب هذا القصر الا للجلاد . انها هنا فى حراستى ، كن على ثقة من أنى لن أسمح بأية محاولة لاغتيالهـــا ، بل سأحميها من كل سوء .

الفصل الثانى

(قصر «وستمنستر» . الكونت « دى كنت »
وسير « ويليام دافيسون » يدخلان ، ويتجه كل
منهما لمقابلة الآخر) .

دافيسون : لقد عدت من الساحة على عجل ، يا سيد دى كنت ! هل انتهى المهرجان اذن ؟

كنت : كيف ، ألم تذهب لمشاهدته ؟

دافيسون : لقد حالت مشاغلى دون ذلك .

كنت : لقد فاتك أروع استعراض .. تحفة قوامها لطف الحس والذوق الرفيع ، فرقة الجمـــال تحاصرها فرقـة الشهوة .. كنت ترى اللورد ماريشال ، وكبير القضاة ، وقائد الحرس وعشرة من الفرسان يصدون الهجوم عن قلعـــة الملكة ، بينما الفرنسيون يوالون الهجوم . وفى البداية أنشد أحد المنادين مقطـوعة شعرية ، يحث فيهـــا القصر على الاستسلام . ثم تولى الرد عليه حامل الاختـــام من أعلى الاسوار . عندئذ تدخلت المدفعية ، فكانت المدافع الصغيرة البديعة تلقى حممها من الازهار وتنشر أريج العطور النادرة . ولكن هيهات ! فقد كانت النهاية صد الهجـوم ، واندحرت « الشهوة » وولت الادبار .

دافيسون : هـذا فأل سيىء للفرنسيين بمناسبة تقدمهم بطلب الزواج .

كنت : كان هذا مجرد تمثيل . أما فى الواقع ، فانى ارجح أن القلعة ستستسلم فى النهاية .

دافيسون : تظن ؟ أنا لا أعتقد ذلك .

كنت : لقد وافقت فرنسا على أدق البنود ، فلقد قبل ولى العهد أن يؤدى الصلاة فى الكنيسة ، وأن يلقى خطابا رسميا يمجد فيه ديانة الدولة ، آه لو انك شهدت حماسة الشعب عندما شاع الخبر ! لقد كان يخشى دائما أن يشهد نهاية الملكة وهى تموت بلا وريث فترسف انجلترا فى أغلال البابوية ، اذا ما أتيح لمارى ستيوارت أن ترتقى العرش .

(تدخل اليزابيث وفى معيتهـــا ليستر ، والكونت دى لوبسبين ، وبلبيفر ، والكونت دى شريوسبورى ، ثم بورليج وعدد آخر من سادة الفرنسيين والانجليز) .

اليزابيث : (الى لوبسبين) انى لمشفقة يا كونت على هؤلاء السادة النبلاء الذين قادهم كرمهم وظرفهم الى هنا ، فحرموا بذلك أنفسهم من مباهج بلاط سان جرمان ، انى لى أن أقيم حفلات رائعة كتلك التى تقيمها ملكة فرنسا !.. ان المشهد الوحيد الذى أستطيع أن أقدمه الى السادة الاجانب بشىء من الاعتزاز هو مشهد الشعب الشريف المتفـــائل الذى يتهافت نحو محفتى ، ويغمرنى بدعائه كلما التقيت به !

بلبيفر : اذا سمحت لنا جلالتكم ، التمسنا الاذن بالرحيل لكى نبلغ النبأ السعيد الى صاحب السمو ولى العهد ، أميرنا المحبوب . انه ينتظر فى (أميان) مبعوثيه الذين سيزفون اليه من (كاليه) بشرى موافقة جلالتكم .

اليزابيث : أيهـــا السيد دى بليفر ، لا تتعجل الامور . أكرر عليك ، ان هذه ليست باللحظة التى يفكر فيها الانسان فى الافراح . ان مستقبلنا تشوبه الظلمات ، وثوب الحداد قد يلائمنى اكثر من رداء العرس ! ان أحداثا مشئومة تهدد كيان بيتى وكيانى .

بلبيفر : اننا لا نطمع فى أكثر من وعد ، يا صاحبة الجلالة، على أن يتحقق فى ظروف أكثر ملاءمة .

اليزابيث : الملوك رهن أوضاعهم ، وليس لهم أن يلبوا نداء قلوبهم . لطالما تمنيت أن أموت دون أن تربطنى بأحد رابطة، ولكن رعاياى يعارضوننى ، انهم يفكرون منذ الآن فى اليـوم الذى أصبح فيه أثرا بعد عين . انهم لا يقنعون بما هم فيه الآن من يسر . بل على أن أضحى بأثمن ما أمتلك ، حريتى ، فى سبيل سعادتهم المقبـــلة . ان شعبى يفرض على رجلا يسودنى ، ويذكرنى بأنى لست ســوى امرأة ، فى حين أنى كنت أحسب أنى ما تقلدت الملك الا كرجل ، كملك .

أوبسبين : يا صاحبة الجلالة ، لقـد أحطت هذا العرش بكل الفضائل ، ولم يعـد أمامك الا أن تمنحى الجنس الذى يعتز بانتسابك اليه ، مثـــال الاستجابة لمطـــالبه فى أدق خصائصها . ما من شـك فى أنه لا يوجد على وجه الارض رجل واحد يستحق أن تضحى بحريتك فى سبيله .. ولكن اذا جاد الزمن بانسان جدير بهذا الشرف وأضفى عليه صفات المحتد الكريم ، ورفعة الشأن ، وعلو القدر ، وطابع الجمال ف ..

اليزابيث : يا سيادة السفير ، تأكد بأن ارتباطى بأحد أبناء الاسرة المالكة الفرنسية يزيدنى شرفا ، اذا قدر لى أن أستجيب لالحاح شعبى . وكم أخشى أن تكون له الغلبة ، فسيكون هذا الامير هو من أضحى بحريتى فى سبيله ، وسيكون ندمى أقل نسبيا مما لو كان الامر متعلقا بغيره . أيكفيك هذا الوعد ؟

بلبيفر : هذه أجمل الامانى ، ولكنها مجرد أمنية ، ومولاى يطمع فى أكثر من ذلك ..

اليزابيث : فيم يطمع ؟ **(تنزع من اصبعها خاتما وتتأمله)** اذن فالملكة كغيرها من النساء ! ووجه الشبه ببنات جنسها لا يعفيها من نفس الاعباء ، ولا من ذات العبودية . احمل هذه الهدية الى سمو الامير . ليس هذا بالقيد ، انه لا يقيدنى بعد ، ولكن يحتمل أن يكون له هذا الأثر .

بابيفر : (يجثو ليتقبل الخاتم) باسم مولاى ، أيتها الملكة العتيدة ، أتلقى جاثيا هذه الهدية ، وأطبع هذه القبلة على يد مولاتى ، عربونا للوفاء .

اليزابيث : (الى الكونت دى ليستر الذى ظل نظرها شاخصا اليه أثناء الجملة الاخيرة) فلتسمح لى . **(تنزع عنه الشريط الازرق وتطوق به عنق بلبيفر)** قلد مولاك هذه القلادة كما أقلدك اياها الآن ، كدليل على انخراطك فى سلك حاشيتى ، فلتكن هذه نهاية كل توتر بين بلدينا ، وبداية ارتباط عرشى فرنسا وانجلترا برباط الصداقة .

أوبسبين : أيتها الملكة العظيمـــة ، لا نزاع فى أن اليوم يوم ابتهاج ، فليت هذا الابتهاج يشمل الجميع ! ان أســـاريرك منبسطة تشع بشرا ورحمة . حبذا لو أصـــاب هذه الاميرة التعسة بصيص من هذا الشعاع ، فهى أولى الناس وأقربهم صلة بعرشى انجلترا وفرنسا .

اليزابيث : سيدى الكونت ، اذا كانت فرنسا تخطب ودى ، فعليهـــا أن تشاطرنى همومى ، لا أن تجهر بصـــداقتها لأعدائى !

أوبسبين : ألن ترين فى سلوك فرنسا ، وهى مقبـــلة على هذه المصاهرة ، عملا شائنا ، اذا ما غفلت عن أرملة مليكهـــا الراحل البائسة ، وقد كانت تربطه بها رابطـــة شرعية ؟ ان الشرف والمروءة يحتمان . .

اليزابيث : انى أقدر وســـاطتك حق قدرها ، ان فرنسا تؤدى واجب الصداقة ، وعلى أنا ان أؤدى واجبى ، واجب الملكة . **(تحيى السادة الفرنسيين الذين يبتعدون فى خشوع ، ثم تجلس) .**

بورليج : أيتها الملكة المجيدة ! انك تستجيبين اليوم لآخر أمنيات شـــعبك . الآن نستطيع أن نستسلم للنشوة التى تتيحهـــا لنا ولايتك على العرش ، دون أن نخشى مستقبلا غامضا . لم يعد أمام البلاد سوى أمر واحد يشغل بالها ، مذنبة يلح الجميع فى المطالبة بدمها . لبى أيضا هذا الرجاء وبذلك تضمنين الى الابد سعادة انجلترا .

اليزابيث : ألا تزال لشعبى مطالب ؟

بورليج : مطلب واحد ، رأس مارى ستيوارت . فلئن أردت أن تصونى تلك الحرية الغالية ، وهذا الضياء ، ضياء الحقيقة ، اللذين منحتهما لرعاياك .. اذا كنت تريدين أن لا نعود الى هذا الجزء المتواصل على حياتك ، يجب أن تختفى عدوتك من الوجود ، فان الوثنية الرومانية لا تزال سائدة فى هذه الجزيرة . هناك مذاهب دينية عديدة وكلها تهدف الى بلبلة الافكار حولك ، وتعزز جانب آل ستيوارت ، متضامنين مع أسرة اللورين ، أعدائك الالداء . ان هذا الفريق يناصبك حربا شعواء يشنها بأساليب جهنمية ، من مستودعه ومرتعه فى ريمس . هناك تلقن فنون الفتك بالملوك ، ومن هناك تفد البعثات الى انجلترا من أتباع التعصب الدينى ، مستترين وراء شتى مظاهر التنكر . ثلاثة من السفاحين هبطوا علينا حتى الآن من هناك . وعلينا أن نتوقع دائما ظهور غيرهم من الاعداء المتخفيين .. فى قصر (فزرنجهاى) تكمن آلهة الشر التى تؤجج هذه الحرب الابدية ، انهـا تمنى كل واحد من هؤلاء بحبها له ، وفى سبيلها يتهافت الشباب لبذل حياته لقاء موت محقق ، واطلاق سبيلها هو بمثابة كلمة السر ، وأما الهدف فهو اعادتها من جديد الى العرش . ان أسرة اللورين لا تسلم بحقك فى التاج . ما أنت فى نظرها الا مغتصبة وصلت الى العرش بمجرد التوفيق . وما من سبيل الى

مهادنة هذه العشيرة »، فاما أن تضربى ضربتك واما أن تتحملى تبعة تقصيرك .

اليزابيث : أيها النبيل ، انى أعرف الباعث على تحمسك. أعلم انك تعبر عن رأى سديد وحكمة سامية ، غير أنى أكره هذه الحكمة التى تلح فى طلب سفك الدماء . عليك أن تهتدى الى طريقة أخرى أقل وحشية من هذه . أيها اللورد النبيل دى شريوسبورى ، هل لنا أن نقف على رأيك ؟

شريوسبورى : مولاتى ، لقد اثنيت بحق على حماسة اللورد بورليج ، لتكن جلالتك على يقين من أنى وان كنت لا أضارعه فى تدفق البيان ، الا أن قلبى ليس أقل ولاء لجلالتك من قلبه ، انى أتمنى أن يمد الله فى عمرك من أجل هناء شعبك ولأجل سلامة الوطن ، فليت هذا الشعب لا يدفع ثمن هنائه على حساب سمعة الوطن ؟

اليزابيث : وقانا الله عثرة التفريط فى سمعة بلادنا .

شريوسبورى : اذن ، فعلينا أن نبحث عن وسائل أخرى لانقاذ البلاد . انك لا تملكين حق محاكمة مارى ستيوارت ، فهى ليست واحدة من رعاياك .

اليزابيث : واذن ، فمجلس النواب ومجلس الدولة وكل دوائر العدالة فى المملكة ، قد أخطأوا حين أولونى هذا الحق ؟

شريوسبورى : انجلترا ليس معناها العالم بأسره ، ومجلس نوابك ليس محفلا لكل أنواع البشر . ان الرأى العام

يميل حينا الى اتجاه معين ، كما يميل أحيانا الى نواح أخرى تمليها اتجاهات الموقف نفسه ، دعك من القول بأنك مضطرة الى الامتثال للأمر الواقع أو لارادة شعبك عندما تشاءين . يمكنك أن تحاولى التحرر من كل قيد . عليك بهذه التجربة. قولى انك ترفضين سفك الدم وانك لا تتمنين الموت لابنة عمك ، برهنى لهؤلاء الذين ينصحونك بالتخلص منها أن ثورتك عليهم ليست مفتعلة ، وسترين كيف يتداعى هذا الالحاح . ان ما يصفونه الآن بالظلم ، يصبح عند ذلك عدلا . عليك أنت وحدك أن تحسمى الموقف . استسلمى الى ما تنطوى عليه نفسك من طباع طيبة . لقد وهب الله النساء قلوبا فياضة بالاحساس ، وأما الذين أقاموا هذه المملكة ، فقد أرادوا أن يبرهنوا ، عندما سمحوا لهن بتولى الملك ، أن طابع الخشونة ليس أول ما يتميز به الحكام فى هذا البلد .

اليزابيث : يا كونت دى شريوسبورى ، أنت تدافع عن عدوتى بتحمس زائد .

شريوسبورى : ليس هناك من يتولى الدفاع عنها . ما من أحد يجرؤ على أن يبوح بشىء لصالحها ، مخافة أن يتعرض لغضبك . أما أنا فكهل هرم ، لن يطول بى العمر ، ولم يعد بين مطامع الحياة ما يبهرنى ، فاسمحى لى أن أتولى الدفاع عن تلك التى تنحى عنها الجميع . لن يشاع يوما عن مجلسك ان الاهواء والانانية وحدهما كانت تتنازعه . كل شىء أصبح

متآمرا على مارى ستيوارت . أنت نفسك لا تعرفين هيأتها ولا يستجيب قلبك لأى هاتف من ناحيتها . أنا لا أحاول أن أبرر أخطاءها . يقولون أنها حرضت على قتل زوجها ، وأنها تزوجت من قاتله ، وهذه لعمرى جناية كبرى ، الا أنها وقعت فى عهد يسوده الاضطراب والكآبة ابان الحرب الاهلية الطاحنة . ولما كانت ضعيفة الجانب ازاء تيار جارف من الاذناب والمحتالين ، فقد ألقت بنفسها بين ذراعى من هو أشدهم بطشا ، مدفوعة بما لا يعلم الا الله من ضروب السحر . ان النساء مخلوقات سريعات الزلل !

اليزابيث : توجد بين بنات جنسنا نساء ذوات نفوس قوية ، ولست أريد أن يثار الحديث فى حضرتى عن ضعف النساء .

شريوسبورى : لقد كان الشقاء الذى أحاط بحياتك بمثابة مدرسة قاسية بالنسبة لك . انت لم تعرفى الحياة الا على وجهها العابس . لقد لقنك والدك العظيم ، حامى حمى هذه المملكة — منذ نشأتك فى قلعة (وودستوك) — التعاليم الصارمة ، وأعدك لتحمل الاعباء الجسام . لم تسع اليك جحافل المتملقين . ومنذ حداثتك اتجه ذهنك الذى كان بمعزل عن عبث الحياة وضجيجها الى الانزواء . الى الاستقرار وتفهم مقاييس الحياة . أما البائسة مارى ستيوارت فقد تخلت عنها العناية ، فمنذ نعومة أظفارها ، أرسلت الى بلاط فرنسا ، وهناك فى نشوة الاعياد وغمرة الملذات والاستهتار ، لم يصل صوت الحق مطلقا الى سمعها . وقد كانت وافرة

الجمال ، كانت تتألق بين جميع النساء وتبزهن حسنا وأصلا .. و ..

اليزابيث : تمالك نفسك ، يا سيد دى شريوسبورى ، ولا يفوتك أننا هنا فى مجلس منعقد . لا بد وأن هذه المحاسن كانت من الغرابة بحيث تزلزل كهلا فى سنك الى هذا الحد. أيها السيد دى ليسستر ، انك تلوذ وحدك بالصمت ، أيكون اذن هذا الذى يطلق لسان شريوسبورى هو نفس الشيء الذى يعقد لسانك ؟

ليسستر : انى ألوذ بالصمت ، ياصاحبة الجلالة ، لأنى فى دهشة من أمر هذه المحاولات التى ترمى الى ارهابك . انى فى دهشة من أن أرى الاشاعات التى يروجها الشعب فى شوارع لندن ، تتسرب الى قلب مجلسك الموقر ، وتشغل أذهان رجال لا تنقصهم الخبرة ولا الحزم . أعترف بأنى فى دهشة لرؤية ملكة اسكتلندا هذه – التى هى الآن بعيدة عن الملك ، عاجزة عن صيانة تاجها ، منبوذة من رعاياها ، بل وموضع سخرية أذنابها الرقعاء – تصبح فجأة وبلا هوادة ، مصدر رعب وفزع . ما عسى أن تكون اذن ، يا الهى ، تلك الاسباب التى تجعلها مرهوبة الجانب الى هذا الحد ؟ أهو أملها فى العرش ؟ أم اصرار آل دى جيز على عدم مبايعتك ؟ وهل تستطيع مناوأتهم لك أن تقلل من شأن حقوقك الشرعية، سواء أكانت موروثة أم مكتسبة من تأييد مجالس النواب لك؟ ألم تتضمن وصية هنرى الثامن ، خطته فى عزل مارى

ستيوارت وابعادها عن الملك ؟ هل قدر لانجلترا التى تنعم بالاستقرار فى ظل النظام البروتستانتى ، أن ترتمى فى أحضان هذه المتشيعة للبابا ، وأن تنتقل من حكم مليكة محبوبة ، الى حكم سفاحة « دارنلى » ؟ ما شأن هؤلاء الرجال الجزعين الذين ينغصون حياتك لمجرد أنك بلا وريث ؟ ما شأن هؤلاء الذين يتعجلون زواجك بحجة انتشال الدولة والديانة معا من كارثة محققة ؟ ألست فى عنفوان الشباب ونعيمه ؟ ألا ينال الوهن كل يوم من مارى ستيوارت ؟ أنا متفائل لك بمشيئة الله ، بأنك ستعيشين بعدها سنين طويلة ، دون أن تدفعيها بيدك الى لحدها .

بورليج : لم يك هذا رأى السيد ليستر قبل الآن .

ليستر : هذا صحيح. فى المحكمة ضممت صوتى الى بقية الاصوات طالبا لها الموت ، وفى مجلس الملكة الخاص ها أنذا أبدى رأيا متباينا ، فليس هنا مجال تطبيق القانون ، بل ترجيح الاصلح . أيخشى جانبها فى الوقت الذى تتخلى فيه فرنسا عنها ، وهى ملاذها الوحيد ، وفى حين انك تهبين يدك لولى عهدها ، وتمنين البلاد بفجر سلالة جديدة ؟ علام تحاولون قتلها ؟ وهى التى لم يعد لها ذكر بين الاحياء . ان المذلة هى عين الموت . وفى رأيى أنا انه ينبغى تركها فريسة لشبح تنفيذ العقوبة عليها ، واذا حاول أحد أن يمتشق السيف مدافعا عنها ، فلتكن ديته رأسه !

اليزابيث : (ناهضة) أيها السادة . لقد استمعت الى

آرائكم . وانى لأشكركم . وبعون الله الذى هو عضد الملوك ، سأفحص حججكم ثم أبت فى الامر . **(يدخل بوليه ومورتيمر)**

اليزابيث : أيها السيد النبيل ، اية أنباء تحمل الينا ؟

بوليه : أيتها الملكة العظيمة ، هذا ابن أخى قد عاد من رحلة طويلة جدا . جاء ليجثو عند قدميك ويقدم فروض الطاعة التى يكنها لك شبابه المضطرم .. فلتتنازلى عن طيب خاطر باستقباله ، واسمحى له أن يطمع فى كرمك الواسع .

مورتيمر : (جاثيا) أتمنى لجلالتك عمرا مديدا . فليتوج الحظ والمجد جبينك مدى الحياة .

اليزابيث : انهض ، أيها السيد ، ومرحبا بعودتك سالما ، لقد قمت برحلة طويلة جدا جبت فيها فرنسا وايطاليا وانتهى بك المطاف الى ريمس ، فيما أعلم ، لا بد وأنك علمت الكثير عن خطط أعدائنا .

مورتيمر : لقد تغلغلت بين جموع الاسكتلنديين المنفيين الذين يدبرون فى ريمس المؤامرات ضد انجلترا . تسربت الى خطوطهم وتمكنت من اكتشاف نواياهم .

بوليه : حتى انهم حملوه رسالة الى ملكة اسكتلندا ، وقد اطلعنا عليها توكيدا لأمانته .

اليزابيث : ما هى آخر خطط أعدائنا ؟

مورتيمر : لقد وقع عليهم نبأ التحالف مع فرنسا وقع الصاعقة ، وهم يولون الآن وجوههم نحو أسبانيا . عند

مغادرتی لريمس ، كان قد وصل اليها منشور من البـابا ، وهذا المنشور عبارة عن حملة ضد جلالتك .

ليستر : ان انجلترا لم تعد تخشى هذه الاسلحة .

بورلیج : ما أشد فتكها فى أيدى المتعصبين .

اليزابيث : **(محدقة فى مورتيمير)** أنت متهم بجمود مذهبك وباندماجك فى مدرسة ريمس .

مورتيمير : انما تظاهرت بذلك تفانيا فى خدمة جلالتك . وانی لأعتز بهذا الاعتراف يا مولاتی .

بوليه : مولاتی ، هذه رسالة لجلالتك من ملكة اسكتلندا .

(تتناول الملكة الرســالة ، وبينما هى تقرؤها ، يتهـامس مورتيمير ، وليستر بصوت خافت) .

بورلیج : **(الى بوليه)** ما عسى أن تحوى هذه الرسالة ؟ شكاية ؟ تظلم لا فائدة منه ، كان ينبغى أن نعفى جلالتها من أمره ؟

بوليه : انها لم تخف عنى مضمون الرسالة . انهـا تطلب السماح لها بحديث مع الملكة .

بورلیج : حديث مع الملكة ؟ محال !

تالبوت : ولماذا ؟ انها لا تطلب ما يجافى العدالة .

بورلیج : انها لم تعد جديرة برؤية الملـكة بعد أن تآمرت على حياتها . ان من يزعم فى نفسه بأنه يخدم صاحبة الجلالة باخلاص ، لا يليق به أن ينصحها بتحقيق هذا الرجاء .

تالبوت : اذا أرادت جلالتها أن تتنـــازل بقبوله ، فلن

تتصدى انت على الاقل لهذه اللفتة الكريمة .

بورليج : لقد أدينت ماري ستيوارت . ولا يمكن تنفيذ الحكم اذا ما دنت جلالتها منها ، فالحضرة الملكية يترتب عليها العفو المباشر .

اليزابيث : (**بعد أن قرأت الرسالة ، مجففة دموعها**) ما أتفه شأن الانسان ! وما أعجزه عن الوصول ! اليكم ماوصلت اليه تلك الملكة التى طالما راودتها الامانى الحارة والتى اعتلت أعرق عرش فى تاريخ المسيحية ، والتى كانت تحسب أنها جمعت بالفعل على رأسها ثلاثة تيجان . آه ! انها لم تعد تتكلم بنفس اللهجة التى كانت تتكلم بها أيام أن كانت تعتمد على جيش بريطانيا ، وحين كانت توحى الى رجال بلاطها بأن ينادوها بـ « ملكة الجزيرتين البريطانيتين » . عفوا ومعذرة أيها السادة ، فان قلبى ليتمزق ونفسى تكتئب عندما ألمس مبلغ عقم الانسان ، وأرى سحب الكوارث تطبق فوق رأسى .

تالبوت : يا صاحبة الجلالة ! لقد أنزل الله الرحمة فى قلبك . استسلمى لهذه الارادة الالهية . لقد كفرت مارى أيما تكفير عن ذنبها الكبير ، ولكن الوقت قد حان لوضع حد لآلامها ، ابسطى يدك لتلك التى فقدت سلطانها . اهبطى الى أعماق سجنها المظلم ، كالرؤية الهابطة من السماء .

بورليج : التزمى الحزم ، يا صاحبة الجلالة . لا تسمحى لعاطفة انسانية عابرة أن تفقدك توازنك . لا تسلبى نفسك

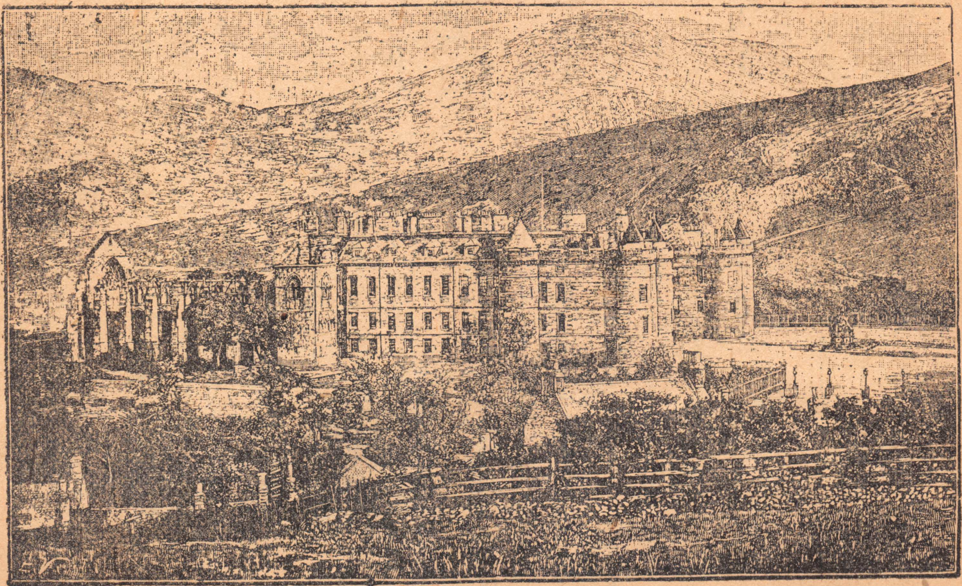
بنفسك حرية التصرف فيما تقتضيه الظروف . لا يجوز لك أن تصفحى ، ولا أن تنقذى مارى ستيوارت . حسبك أن تتجنبى اللوم على كون نشوة الانتصار قد استبدت بك فجعلتك تشبعين نهمك من التنكيل بضحيتك .

ليستر : أيها السادة ، لا يليق بنا أن نتجاوز حدودنا . ان صاحبة الجلالة تتمتع بحظ وافر من الحكمـة ، وهى تعرف وحدها كيف تسلك أفضل السبل . ان مقابلة الملكتين لا تغير مجرى العدالة . ليست الرغبـة الملكية هى التى أدانت مارى ستيوارت بل القانون الانجليزى . ان اليزابيث لأقوى نفسا من أن تستسلم لميول قلبها .

اليزابيث : سوف نجد وسيلة للتوفيق بين مطالب الرحمة ومقتضيات الضرورة ، يمكنكم أن تنسحبوا . (**اللوردات يخرجون . تنادى مورتيمير**) أيها السيد مورتيمير ، لدى ما أقوله لك . (**بعد أن تحدق فيه بضع لحظات**) لقد برهنت على جرأة فائقة ورباطة جأش نادرة بالنسبة لمن كان فى سنك . ان الذى يتدرب وهو فى مستهل حياته على فن التنكر المعقد ، يختصر على نفسه مدة اختباره . وان المقادير لترشحك لمستقبل عظيم ، أنا متنبئة لك بذلك . وعن طريق سعادتك أستطيع أنا نفسى أن أحقق غايتى .

مورتيمير : يا صاحبة الجلالة ، ما عليك الا أن تأمرى ، ان كل معرفتى وكل امكانياتى رهن اشارتك .

اليزابيث : لقد تعلمت طريقة اكتشاف أعداء انجلترا . ان حقدهم على لا ينتهى عند حد ، ومشاريعهم الدامية



القلعة التى سجنت فيها « مارى ستيوارت »

تتجدد كل يوم .. وقدرة الله ترعانى حتى يومنا هذا ، غير أن تاجى لن يعرف الاستقرار ما دامت مارى ستيوارت على قيد الحياة . وما زالت لهؤلاء المتعصبين تعلة وأملا .

مورتيمير : انها ستموت عندما تريدين لها الموت .

اليزابيث : اسفاه ، يا سيدى ! كنت أحسب نفسى قد وصلت الى غايتى ، فاذا بى لم اتقدم خطوة بعد . أردت أن أترك الحكم للقانون ، وأن أحتفظ بيدى طاهرتين .. ولقد صدر الحكم ، فماذا أفدت من وراء ذلك ؟ لا بد من تنفيذ هذا الحكم يا مورتيمير ، وعلى أنا أن أصدر أمرى بذلك ، فعلى كاهلى تقع المسئولية ولا سبيل للتنصل منها !

مورتيمير : لم تكترثين بهذا الامر ما دمت مطمئنة الى عدالة موقفك ؟

اليزابيث : لن افلح فى اقناع احد بوجهة نظرى . وعلى ذلك ينبغى ان اكون ساهرة على ان تظل مساهمتى فى هذا الموت موضع تشكك . ان مثل هذه الاعمال لا تقوم الا على أساس السرية التامة ولا تنجح الا بالتكتم الشديد ، فان أفشل محاولة هى تلك التى يفشى سرها .

مورتيمير : علينا أن نكفل لها النجاح اذن ..

اليزابيث : أجل ، لنكفل لها النجاح . ان ملاكى الطيب يرسل الوحى على لسانك . اكمل ، أيها السيد . لقد تغلغلت فى أعماق خاطرى ، ولا وجه للشبه بينك وبين عمك .

مورتيمر : وهل كاشفته برغبتك ؟

اليزابيث : وانى لنادمة على ذلك !

مورتيمر : التمسى له بعض العـذر . انه فى سن تجعله مترددا .. ومثل هذه المغامرات تحتاج الى حمية الشباب .

اليزابيث : هل لى أن أطمئن اليك ؟

مورتيمر : انى أمد اليك يدى . ستحافظين على مكانتك .

اليزابيث : آه يا سيدى ! حبذا لو أيقظتنى ذات صباح ، حاملا الى هذا النبأ : « لقـد ماتت هـذه الليلة ، مارى ستيوارت ، عدوتك اللدودة ! »

مورتيمر : أعتمدى على ، يا صاحبة الجلالة .

اليزابيث : وداعا ، يا سيدى ، ولا تأخذنك الدهشة اذا لم تتضح لك معالم اعترافى بجميلك . ان اسعد البشر هم من كان الصمت رائدهم . وأقوى الروابط وأمتعهـا هى ما كانت تكتنفها الاسرار . **(تخرج)** .

مورتيمر : **(وحده)** أتكون سحنتى سحنة سفاح ؟ هـل قرأت على جبينى امارات الجريمة ؟ ان لهـا أن تعتمد على ساعدى ! فلتلبس أمام الملأ مسوح الطيبة الكاذبة ! كل هذا سيعود علينا بكسب الوقت . انها تلوح لى من بعيد بمكافأة قيمة ! بئست هذه المكافأة حتى ولو كانت هى نفسها وكل ما وراءها من الخيرات ! من عساك تكونين أيتها الشقية ؟ ما الذى فى وسعك أن تمنحيه وما الذى يرجى من ورائك ؟ هل فى وسعك أن تمنحى أى شخص كان هذه المتعة التى تحيل

الحياة الى نعيم .. صفاء قلب لقلب وانسيابهما معا فى لجة من التأملات ؟.. انك لم تعرفى بعد هذه النشوة ولن تبلغيها أبدا ، فانك لتعجزين عن اسعاد رجل يحبك .. على أن أنتظر « ليسستر » لأسلمه الخطاب ، على قلة ثقتى به . أنا وحدى من يستطيع انقاذ مارى ستيوارت ، وعلى وحدى يقع الخطر ، ولى وحدى غنيمة الفخر والجزاء . **(يهم بالخروج، فيقابل بوليه)** .

بوليه : (داخلا) ماذا قالت لك الملكة ؟

مورتيمير : لا شىء يا سيدى ، لا شىء ذى بال .

بوليه : أصغ يا مورتيمير : انت تسلك طريقا وعرا ، فالشباب ميال الى المباهاة ، وحظوة الملوك لها عليه سلطان كبير .. اياك أن يسلبك الطموح صوابك !

مورتيمير : لقد قدتنى بنفسك الى البلاط .

بوليه : وانى لجد آسف ، ان أسرتنا لا تدين للبلاط بما نالته من ألقاب الشرف . اعتدل فى رد الجميل للملكة .

مورتيمير : لماذا توجه الى هذا الكلام ؟

بوليه : لا تثق بكلامها المعسول ، ولا بوعودها الخلابة ، اذا أجبت مطالبها فانها ستتنكر لك ، وفى سبيل انقاذ سمعتها ستكون أول من ينتقم للجريمة التى حرضت عليها !

مورتيمير : الجريمة ؟

بوليه : لا تحاول أن تخدعنى ، انى أعرف ما عرضته عليك الملكة . انها تؤمل أن تكون مسالما أكثر منى ، لأنك شاب

ولأنك تطمح للمجد ، ماذا كان جوابك عليها ؟

مورتيمير : عمى ..

بوليه : اذا كنت قد فعلت هذا ..

ليستر : **(داخلا)** أيها السيد ! اسمح لى أن أقول بعض كلمات لابن أخيك . ان صاحبة الجلالة شديدة الاهتمام بأمره ، وهى تأمر بأن يعهد اليه بلا توان بحراسة مارى ستيوارت . انها تركن اليه لما لمسته فيه من أمانة .

بوليه : تركن اليه .. حسن .

ليستر : ماذا تقول يا سيدى ؟

بوليه : ان جلالتها تركن اليه ، وأنا أركن الى نفسى والى رأيى . **(يخرج)** .

ليستر : ماذا حدث ؟

مورتيمير : لا أدرى ، لعل الثقة المفاجئة التى تمنحنى الملكة اياها ..

ليستر : هل أنت أهل لهذه الثقة ؟

مورتيمير : انى أوجه اليك نفس السؤال ، يا سيد دى ليستر .

ليستر : كان لديك ما تقوله لى سرا .

مورتيمير : اثبت لى أولا انه بوسعى أن أتجرأ فأفعل .

ليستر : وعلام أعتمد ؟ لا تك مستاء لتشككى فى أمرك ،

انك تبدو هنا بوجهين ، لا ريب أن أحدهما مزيف . كيف يتاح لى أن أعرف أيهما أصدق ؟

مورتيمر : بوسعى ان أقول نفس الشىء بالنسبة لك ياسيد دى ليستر .

ليستر : من منا الذى سيبدأ باثبات حسن نيته ؟

مورتيمر : من هو أقل عرضة للخطر .

ليستر : اذن فهو أنت .

مورتيمر : لا ، بل أنت . أنت رجل ذو مكانة ، تشغل مركزا هاما ، اذا وشيت بى نلت منى ، أما أنا فلا تستطيع وشايتى أن تنال من مركزك ولا حصانتك .

ليستر : أنت مخطىء - وأنا أعترف لك بذلك اثباتا لحسن نيتى - فانى أعتبر أضعف رجل فى البلاط ، وأية وشاية تستطيع أن تطيح بى !

مورتيمر : أو يحط ليستر العظيم من قدره الى حد أن يدلى لى باعتراف كهذا ؟ (**يقدم له الخطاب**) ان ملكة اسكتلندا تبعث اليك بهذه الرسالة .

ليستر : (**تعتريه رعدة ويختطف الرسالة من يده**) اخفض صوتك أيها السيد مورتيمر . أتعرف مضمون هذه الرسالة ؟

مورتيمر : لست أعرف شيئا .

ليستر : لا بد وأنها أسرت اليك . .

مورتيمر : انها لم تسر الى بشىء . قالت لى انك ستكشف

هـــذا اللغز ، فانه للغز بالنسبة لى ان يكون الكونت دى ليسستر ، صفى اليزابيث ، وعدو مارى ستيوارت المرموق وأحد قضاتها ، هو الرجل الذى تنتظر الخلاص على يديه !

ليسستر : اشرح لى أولا كيف حدث أنك انضـممت الى صفها بهذا الحماس ، ومن أين لك الفوز بثقتها ؟!

مورتيمير : الامر غاية فى البساطة : لقد غيرت مذهبى عندما كنت فى روما ، ثم أنى حليف آل « دى جيز » . وقد كانت رسالة موجزة من رئيس الاساقفة بمثابة خطاب توصية بى لدى ملكة اسكتلندا .

ليسستر : لقد سمعت عن واقعـــة تغيير مذهبك ، وهى التى حفزتنى الى الاطمئنان اليك . فلتمد لى يدك ولتغفر لى شكوكى ، فأنا بطبعى قليل الحيطة .. ان « والسنجهام » و « بورليج » يحقدان على ويكيدان لى . وكان من المحتمل أن تكون أنت أداة للايقاع بى فى شراكهما .

مورتيمير : من ذا الذى يستطيع أن يتصور أن شخصية مرموقة من شـخصيات هـذا البلاط تعـانى مثل هـــذا الضغط !

ليسستر : انى لأرتمى فى غبطة بين ذراعى صديق أمين ، أستطيع فى النهاية أن أتحرر حياله من هذه القيود البالية . أراك فى دهشـــة من أن قلبى يتحول بسرعة نحـــو مارى ستيوارت ! والواقع اننى ما كنت لأكرهها أبدا ، غير أن ظروف الحياة خلقت منى عدوا لها . فمنـــذ سنين عديدة ، حين كانت لا تزال تنعم بتألق عظمتهـا ، وقبـــل أن تتزوج من

« دارنلى » ، كانت مرشحة للزواج منى ، ولكنى تنحيت عنها بمزيد من الجفاء . أما الآن ، وهى سجينة على أبواب الموت ، فانى أريد أن أستردها ، ولو فديتها بحياتى !

مورتيمير : هذا ما يسمى بالمعاملة الكريمة .

ليستر : لقد تطورت الظروف يا سيدى . فى ذلك الوقت كان الطموح يوقفنى جامدا أمام الجمال والشباب . كنت أشعر بأن مارى غير جديرة بى . كنت أمنى نفسى بغزو قلب ملكة انجلترا !

مورتيمير : الكل يعرف مبلغ تفضيلها لك على سواك .

ليستر : كان الامر يبدو كذلك . والآن ، وبعد عشر سنوات متوالية من الضغط البغيض .. آه ، يا سيدى ، ان قلبى قد فاض به . يجب أن أتخلص من هذا الكمد الذى طال أمده . انهم يخالوننى سعيدا . آه لو علموا ما هى الاغلال التى يحسدوننى عليها ! طيلة عشر سنوات مريرة ، كنت ضحية عبث الملكة !.. كنت أسير كل نزواتها المتعجرفة ، وقد تحملتها فى ذلة العبيد !.. كنت ألعوبة مآربها المتقلبة أيما تقلب . كنت أنا المدلل تارة ، الطريد المنبوذ تارة أخرى . وأنا أنا فى كلتا الحالتين الذى أعانى اقبالها وادبارها ، ورق غيرتها الطاغية . أستجوب كما يستجوب الطفل ، وأستهدف للقذف كما يستهدف له الخادم الوضيع .. ان البيان ليعجز عن وصف هذا الجحيم !

مورتيمير : انى أرثى لك ، أيها الكونت .

ليستر : ما كدت أبلغ غايتى ، حتى ألفيت نفسى محروما من ثمار تضحيتى . زوج فتى مرح جاء يسلبنى حقوقى . على أن أهجر هذا المسرح الذى طالما لعبت عليه أول الادوار . ان هذا الضابط الدخيل علينا يهددنى باغتصاب يد الملكة وحظوتى لديها ، فى آن واحد . انها امرأة ، أما هو فسالب النهى !

مورتيمير : انه ابن كاترين ، فلا تعجب اذا كان هذا الشبل قد حذق فنون المداهنة !

ليستر : وهكذا تنهار آمالى . انى أتلمس — وقد أشرفت السفينة على الفرق — أرضا صلبة أيممها طلبا للنجاة . وقد تحولت عيناى نحو مارى ، فمثلت صورتها أمام ناظرى بكل ما تحمل من مفاتن وسناء . لقد استعاد الشباب والجمال كل ما لهما من حقوق مسلوبة . انه القلب قد عاد يتحكم فبدد أحلام المطامع ، وبدأت أدرك قيمة الكنز الذى فقدته !.. بدأت ألمح فى تقزز من نفسى الهوة السحيقة التى تردت هى فيها بفعل حماقتى !.. على أن الامل فى انقاذها واستردادها أخذ يراود نفسى ، وانى لسعيد اذ قيضك الله لى ، لتمكننى من ابلاغها كيف يهتز لها قلبى من جديد . وان فى هذه الرسالة التى حملتها الى ، ضمان عفوها عنى ، ووعدها القاطع بأن تمنحنى يدها اذا ما وفقت لانقاذها !

مورتيمير : ومع ذلك فأنت لم تفعل شيئا لانقاذها . لقد تخليت عنها حتى أدينت !.. لقد طلبت لها الموت . كان

لابد من معجزة . كان لابد أن تضيء السماء طريقى ، فتجعل منى أنا : ابن أخى سجانها ، منقذها الأول ، والا لعجزت حتى عن الوصول اليك .

ليستر : آسفاه ! لقد عانيت الكثير من جراء ذلك . ففى نفس الوقت تقريبا تركت مارى قصر (تالبوت) الى قصر (فازرنجهاى) حيث وضعت تحت رقابة عمك الصارمة .. فكان كل طريق اليها مسدودا فى وجهى . كان لابد لى من أن أتظاهر أمام الناس بموافقتى على ادانتها . ولكن لاتظن أنى كنت أنوى أن أتركها تعدم دون اكتراث . لا ، لقد كنت ولا زلت أؤمل أن أحول دون ذلك ، الى أن أجد سبيلا لانقاذها !

مورتيمير : ولقد اهتديت اليه ، يا كونت . ان ما أوليتنى من ثقة كريمة يحفزنى على أن أثبت أننى أهل لها . أريد أن أخلص مارى ستيوارت ، وهذا سبب وجودى هنا . الخطة معدة فعلا . ومساعدتك الفعالة ستكفل لنا النجاح .

ليستر : ماذا تقول ؟ أنت تريد ..

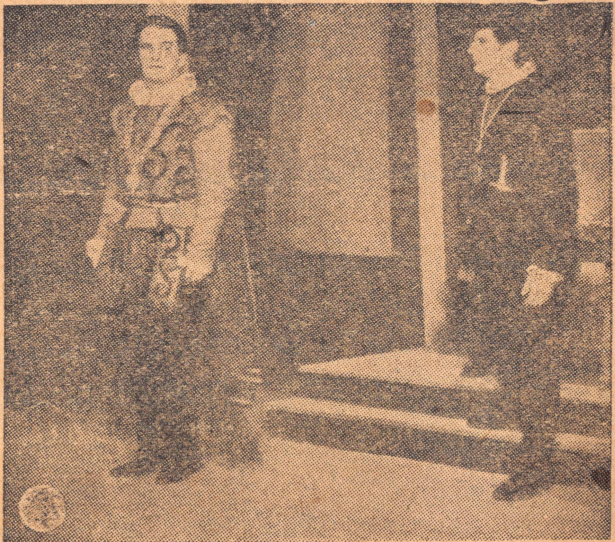
مورتيمير : أريد أن أنتزعها بالقوة من سجنها ، بمعونة أصدقائى . نحن على أهبة الاستعداد !

ليستر : لك شركاء ! آه أيها التعس ! فى أية مغامرة تزج بى ! هل يعلمون سرنا ؟

مورتيمير : لا تخش شيئا مطلقا ، لقد وضعت الخطة بدونك ، وكان من الممكن أن تنفذ بدونك !

ليستر : معنى ذلك أنك تستطيع أن تؤكد لى أن اسمى لم يذكر خلال المؤامرة ؟

مورتيمر : أؤكد لك ذلك . أنت كثير التردد ، ياكونت . تريد أن تنقذ مارى ستيوارت وتحظى بها ، فتوفق الى أصدقاء لهم نفس نزعتك ، ثم تهبط عليك وسائل تحقيق أمنيتك من السماء .. ومع ذلك يبدو عليك الارتباك أكثر من الفرح بكل هذا !



(« رايموند هيرمانتييه » فى دور « مورتيمر » و « لويس أربسييه » فى دور ليستر)

مورتيمر : ما الذى فعلته لانقاذ مارى » (الفصل الثانى »

ليستر : لاينال الانسان أى شىء بالقوة . هذه محاولة خطيرة جدا .

مورتيمير : والتوانى أشد خطورة !

ليستر : لايمكن الشروع فى عمل كهذا .

مورتيمير : أتعجز عن ذلك وأنت الذى تريد أن تحظى بمارى ستيوارت ؟ أما نحن فلا هدف لنا الا انقاذها ، ولكننا أقل منك ترددا .

ليستر : أنت شاب ، وأخشى أن تندفع بسرعة نحو محاولة بهذه الدقة وهذا الخطر !

مورتيمير : وأنت تبالغ فى الرزانة فى مسألة كهذه تتعلق بالشرف .

ليستر : انى أتبصر فى الشراك المنصوبة لنا فى كل جانب .

مورتيمير : أشعر بأن لدى الشجاعة لمواجهتها جميعا !

ليستر : ما هذه الشجاعة الا تهور وتخبط .

مورتيمير : أما رزانتك فلا أثر فيها للشجاعة !

ليستر : أتريد أن تلقى نفس المصير الذى لقيه « بابنجتون » ؟

مورتيمير : ألا تريد أنت أن تحتذى مثل « نورفولك » على ما فيه من انسانية كريمة ؟

ليستر : نور فولك لم ينعم بالزواج من خطيبته .

مورتيمير : ولكنه أثبت جدارته بها .

ليستر : اننا نجرها معنا الى الهلاك ، فيما لو هلكنا .

مورتيمر : كما أننا لن ننقذها لو تقاعسنا .

ليستر : أنك ستفسد باندفاعك الاعمى وقلة صبرك مسألة كانت تسير فى اتجاه سليم .

مورتيمر : اتجاه رسمته أنت بلا شك ! ما الذى فعلته لانقاذ مارى ؟ قل لى ما الذى كنت ستفعله لو أنى اغتلتها تنفيذا لأمر الملكة ؟

ليستر : هل أمرتك الملكة بذلك ؟

مورتيمر : لقد أخطأت فهم موقفى ، كما أخطأت مارى فهم موقفك .

ليستر : وهل قبلت ؟

مورتيمر : بل تطوعت لأحول دون تكليفها لغيرى بذلك .

ليستر : لقد أحسنت التصرف ، انها ستعتمد عليك فى تنفيذ الجريمة ، وهكذا ترجىء تطبيق حكم الاعدام فنكسب الوقت .

مورتيمر : بل نضيع الوقت !

ليستر : انها تعتمد عليك . ولعلها تكون على الأقل أشد ترددا فى التظاهر أمام الناس بمظهر الرحيمة . ربما أفلح فى اقناعها بالموافقة على مقابلة عدوتها ، وهكذا أغل يدها .. على أى حال فان بورليج على حق ، فلن يصبح الحكم نافذا اذا هى تورطت وواجهت مارى . سأحاول تدبير الأمر لكى ..

مورتيمير : وماذا تفيد من وراء ذلك ؟ اذا ما خيبت امل اليزابيث ، اذا ما ظلت مارى على قيد الحياة ، فهلا يظل كل شيء على ما كان عليه ؟ لن يطلق سراحها أبدا . سيكون السجن المؤبد هو أخف مصير محتمل لها . اذا شئت الوصول فلابد لك من استعمال القوة . لم لا تلجأ اليها توا ؟ ان لك من النفوذ ما يتيح لك تجنيد جيش من أتباعك ، ومازال لمارى عدد كبير من الأنصار الذين لاينتظرون الا اشارة من أحد اللوردات العظام . أخرج من مكمنك . أجهر بعملك . دافع عن مارى كما يدافع الفارس المغوار ، قاتل فى سبيلها قتالا كريما باسلا . ولن يتعذر عليك أن تأمن جانب اليزابيث فى الوقت المناسب . استدرجها الى قصر من قصورك — وكثيرا ما وافتك فيها — وهناك تناقشها كما يتناقش الرجال ، أصحاب النفوذ ، ثم تتركها سجينة الى أن ترد لمارى ستيوارت حريتها !

ليستر : انك تروعنى . لقد بلغ بك الهذيان حد الجنون ، أنت لاتعرف شيئا عن هذا البلاط . ان سطوة هذه المرأة قد تسلطت على العقول . ان البطولة المتأججة التى كانت تضطرم فى هذا البلد فيما مضى قد ولت . كل شيء أصبح خاضعا لنفوذ امرأة ، وانقلب الاقدام الى ميوعة!

مورتيمير : أتردنى على أعقابى مشيعا بعبارات العزاء فحسب ؟

ليستر : احمل لها قسما غير حانث ، بحبى الخالد .

مورتيمر : احمله أنت بنفسك . انى قد تطوعت تطوع الآلة الصماء لانقاذها ، لا لكى تتخذنى رسولا لغرامك ! **(يخرج)**

اليزابيث (داخلة) : من ذا الذى خرج توا من هنا ؟ لقد سمعت كلاما .

ليستر : انه مورتيمر .

اليزابيث : ماذا بك ؟ أراك شديد الاضطراب .

ليستر : لمجرد رؤيتك ، يا صاحبة الجلالة .. فما عهدتك قط على هذه الدرجة من الحسن ، وانى لمأخوذ لفرط هذا الجمال . أسفاه !

اليزابيث : لماذا تتأوه هكذا ؟

ليستر : الا تجدين عندى باعثا على التأوه ؟ أن جمالك ليزيد من ألمى مادمت مهددا بفقد ..

اليزابيث : وما عساك تفقد ؟

ليستر : قلبك ، ذاتك الحبيبة ، عما قريب تغمرك النشوة فى أحضان زوج شاب متوثب تهبينه كل نفسك بلا منازع . انه سليل الملوك ، أما أنا فلست كذلك . ومع ذلك، فلا يوجد فى العالم بأسره رجل يكن لك ما أكنه من عبادة . الدوق « دانجو » لا قبل له بك ، انه مفتون ببريق تاجك وروعة مجدك . أما أنا ، فهى أنت من أحب . لو أنك كنت أفقر الرعاة وكنت أنا أعظم ملوك الأرض ، لنزلت الى مستواك ووضعت تاجى عند قدميك !

اليزابيث : لك أن ترثى لى يا « دادلى » ، وليس لك أن تلومنى ، فأنت أعلم بأنى لا أملك استشارة قلبى . لكم أحسد النساء اللواتى يستطعن تحويل الرجل الذى يحببنه الى مصافهن . لقد قدر على أن لا أتذوق هذه الغبطة ، غبطة تتويج من هو أعز الناس الى نفسى . أما هى ، مارى ستيوارت ، فقد كانت تهب نفسها لكل من يصبو قلبها اليه ! لم تحرم نفسها من أية متعة . أتت على ثمالة كأس الملذات جميعها . لم تحفل برأى الناس فيها . لقد عاشت فى بسطة الحياة ، وما كانت لتقبل الخضوع لما أنا فيه من نير ومذلة . كان فى مكنتى أنا أيضا أن أسعى الى متعة الحياة ، غير أنى فضلت عليها أعباء الحكم . ومع ذلك فقد اكتسبت هى عطف الجميع لأنها قصرت حياتها على ملىء فراغ أنوثتها . الشباب والشيوخ يشيعونها بالتنهدات . هؤلاء هم الرجال ، تستهويهم الخفة والرعونة ولا تستميلهم المثل التى ينبغى لهم تمجيدها . ألم يعد تالبوت نفسه الى فجر شبابه وهو يترنم بسحر مفاتنها ؟

ليستر : له العذر ، فاغفرى له . لقد كان قائما على حراستها ، وقد عرفت كيف تخيله بدهائها وملقها !

اليزابيث : أهى جميلة حقا الى هذا الحد ؟ طالما سمعت القوم يطرون جمالها ، حتى بت متلهفة الى معرفة حقيقة أمرها ، وتطبيق هذه الاشاعات على الواقع الملموس . كثيرا ما تخدع الصور البصر ، ولا يخلو الوصف مهما كان صادقا



ماری ستیوارت امام قضاتها ●

من المغالاة . لا يمكنني الاعتماد الا على نظرتي الخاصة . لماذا تنظر الى هكذا ؟

ليستر : كنت أتمثلك في مواجهة ماري ، أثنـاء زيارة خفية . ولا أكتم عنك انى كنت أفكر في اختبار مشاعري وما عساه يستولي عليها من سرور لهذا الوضع . لو تم لك ذلك لانعقد لك ، على ما أتصور ، لواء النصر ، ولكان جزاؤهـا مغبة الاندحار لرؤية مدى تفوقك عليها في الجمال ، وفي كل ناحية أخرى . لسوف ترى ذلك بجلاء ، فالغيرة تجـاو البصيرة !

اليزابيث : انها أصغر مني سنا .

ليستر : أصغر منك ! ومن ذا الذي يصدق ذلك ! لقد هرمت قبل الاوان من توالي المصـائب . ان ما سيزيد من مرارة اندحارها هو علمها بخطبتك لولي عهد فرنسا . وسعيك الحثيث نحو السعادة ، بينما هي قد استنفدت كل آمالها ، وفي حين أنها ــ وهي التي كانت شديدة الزهو بزواجهـا زواجا فرنسيا ــ قد باتت تنشد عون هذا البلد الذي كانت يوما ملكة عليه !

اليزابيث : أنهم يرهقونني ، يلحون على في رؤيتها .

ليستر : أنها تطلب منك هذا على سـبيل المعروف ، فامنحيها اياه على سبيل القصـاص . لو انك سـقتها الى المقصلة ، لما نلت منها بقدر ما تنالين اذا ماصرعتها الغيرة من جمالك وعظمتك . لم أعهدك في حياتي مهيـأة لاحراز نصر

كالذى أنت مهيأة لاحرازه الآن . عندما دلفت الى هذه الحجرة ، بهرنى نورك وكأنك الرؤيا المشرقة . لو دلفت الان، الان كما أنت ، الى سجنها لاغتنمت فرصة لن تعرض الك ثانية !

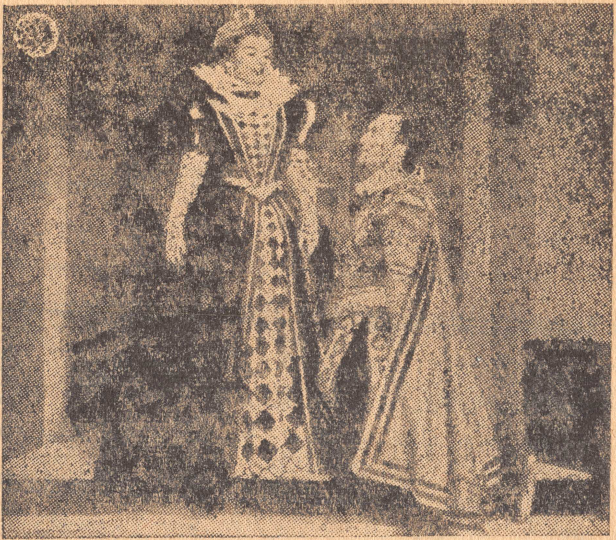
اليزابيث : الآن ؟ لا . لا ، ليس الآن يا ليستر . لا بد لى من أن أفكر فى الامر . ثم أن بورليج ..

ليستر : بورليج ! انه لا ينظر للامور الا من الناحية السياسية . ان لروح المرأة فيك حقوق عليك هى الاخرى . عليك أنت — وليس أحد رجال الدولة — أن تحسمى هذا الموقف . لا بد لك من رؤية مارى لكى تكسبى عطف الرأى العام بهذه اللفتة الكريمة ، ولك بعد ذلك أن تتخلصى منها بأية وسيلة !

اليزابيث : لا يليق بذاتى الملكية أن أرى ابنة عمى وهى تعانى الحرمان . ان مشهد الضيق الذى هى فيه سيبدو لى بمثابة توبيخ لضميرى .

ليستر : لاحاجة بك الى اقتحام عتبة سجنها . سأعرض عليك رأيى ، اليوم يوم الصيد الكبير ، وستكون حلبته قريبة من قصر (فازارنجهاى) . يمكن السماح لمارى ستيوارت بنزهة فى الحديقة . ثم تقع مصادفة حضورك ، وكأنها أمر طبيعى ، واذا استنكفت الكلام معها ، يمكنك ..

اليزابيث : لو أنى ارتكبت هذه الحماقة ، فعليك وحدك تبعتها يا ليستر . لست أستطيع أن أرفض لك طلبا ،



(الملكة اليزابيث ـ وتقوم بدورها « جان كريسبان » ـ مع ليستر)
اليزابيث : أما هی ، ماری ستيوارت ، فقد كانت تهب نفسها لكل من يصبو قلبها اليه . (الفصل الثانی)

سيما اليوم وقد أسأت اليك اساءة لم ينلها أحد من رعيتی.
حتی لو كانت هذه مجرد نزوة من نزواتك لاستجبت لها ..
أو لا يتمخض الحب عن اجابة مطلب لا يستسيغ هو نفسه تبريره ؟

الفصل الثالث

منظر حديقة . تبدو مارى ستيوارت من وراء الاشجار وهى تركض . كنيدى تتبعها ببطء .

كنيدى : حقا انك لتسرعين كما لو كان لك جناحان ، أنا لا أستطيع اللحاق بك . انتظرينى .

مارى : دعينى أغتنم وميض الحرية . دعينى أعود الى عهد طفولتى ، وافعلى مثلى أنت ايضا . أحقا انى تركت سجنى المظلم ؟ لا أستطيع أن اصدق ذلك . دعينى اتزود من استنشاق هذا الهواء العليل ، وأركض ، وأرقص على العشب !

كنيدى : آه ، يا مولاتى ! ان سجنك لم يتسع أكثر من ذى قبل ، أنت لا ترين الجدران التى تضمك سجينة بين أركانها، لأن كثافة الاشجار تحجبها عنا . والا . .

مارى : اذن فشكرا ، شكرا لهذه الاشجار التى تحجب عنى جدران سجنى . اريد أن أتخيل نفسى طليقة . لماذا تحاولين انتزاعى من هذا الوهم اللطيف ؟ السماء تحيط بى من كل ناحية . بصرى ينطلق فى الفضاء الى ما لا نهاية . هناك صوب هذه الجبال التى يتوج الضباب قممها يمتد ملكى ، وهذه السحب التى تدفعها أمامها ريح الشمال تزحف متجهة الى فرنسا . أيها الغمام الباسق السريع ، يا شراع

السماء السارية ، من لى بأن أبحر على متن سفينتك ؟ أحمل عنى التحية الى ذلك البلد الآمن الذى نعمت فيه بأيام شبابى . أنا رهينة السجن ، أرسف فى الاغلال ، لا رسول لى الا أنت ، يا من تمخر العباب متحديا ارادة الملوك !

كنيدى : آه ! يا مولاتى ، أنت خارجة عن طورك . لقد خلبتك الحرية لبك .

مارى : انظرى الى هناك . أحد الصيادين يعود بقاربه نحو الشاطىء . هذا الزورق اللعين قادر على أن يكفل نجاتى وحملى سريعا ، الى بلد حليف !.. انه لا يكاد يقوم بأود هذا الرجل . لئن فعل لكدسته بكنوز ينوء بحملها ، ولأغدقت على صاحبه عطاء لا يدانيه عطاء !

كنيدى : أسفاه ، لا سبيل الى تحقيق أمنيتك ! الا ترين أن حراسنا يراقبوننا على بعد ؟.. الاوامر الصارمة نحت عن طريقنا كل مخلوق رحيم !

مارى : لا يا عزيزتى جان ، صدقى ما أقوله لك . ان أبواب سجنى لم تفتح اعتباطا . هذه القطرة الاولى ان هى الا بشائر الغيث . أنا لست مخدوعة ، بل مدينة بها للحب ، فليست هذه الا قبضة ليستر المقتدرة العاتية . لسوف تنفرج أبواب سجنى شيئا فشيئا ، حتى ألمح أخيرا من خلالها ذلك الوجه الذى سينتشلنى الى الابد !

كنيدى : أنا لا أجد تعليلا لهذه الاحداث : البارحة ، أعلنوك بحكم يقضى بادانتك ، واليوم يطلقون سراحك فجأة !

ماري : أتسمعين صـــدى نفير القنص ؟ أتسمعين نداءه القوى فى الحقول والاحراش . آه ! لكم أود أن أمتطى صهوة جواد جامح وألحق بالركب السعيد . لكم أود أن استمع الى هذا الصوت الاليف ، الى هذه الذكرى الحانية الاليمة ، هذا الصوت الذى طالما تردد صداه فى سمعى ونحن نعبـر السهول والهضاب على ظهور الخيل !

بوليه (داخلا) : وبعد ، يا سيدتى ! أيتفق أخيرا تصرفى مع رغباتك ؟ هل أستحق شكرك هذه المرة ؟

ماري : كيف ؟ أنا مدينة لك بهذا المعروف ؟ لك أنت ؟

بوليه : ولم لا أكون أنا ؟ لقد ذهبت الى البلاط وقـدمت رسالتك .

ماري : قدمتها ؟ وهل الحرية التى أنعم بها الآن هى نتيجة هذه الرسالة ؟

بوليه : ولن تكون الاخيرة . لك أن تتوقعى ما هو أهم من ذلك .

ماري : أهم يا سيدى ؟ ماذا تعنى ؟

بوليه : أسمعت صوت النفير ؟

ماري : أنك تخيفنى .

بوليه : الملكة تصطاد فى هذه البقاع .

ماري : ماذا تقول ؟

بوليه : بعد لحظات معدودة ، ستكون أمامك . ألست راضية ؟ لقد تحقق رجاؤك بأسرع مما كنت تتصورين .

ماري : لماذا لم يخطرونى بذلك ؟ أنا لست متهيئة لهـذه

المقابلة. ان ماكنت أحسبه فضلا كبيرا قد بات الآن يروعني. هلم ، جان ، لنعد !

بوليه : بل ابقى . عليك أن تنتظرى الملكة هنا . أأنت خائفة من مواجهة من تقاضيك ؟ (**يدخل الكونت دى شريوسبورى**) .

مارى : كلا ، لست خائفة . آه ! أيها الكونت النبيل دى شريوسبورى ، لقد ارسلتك عناية السماء ، لن يستطيع بصرى أن يقع عليها . أنقذنى أنقذنى من محضرها الكريه !

شريوسبورى : كونى أكثر هدوءا . تمالكى نفسك . لقد حلت الساعة الحاسمة .

مارى : انى أنتظرها منذ سنين طويلة ، ولقد أعددت لهـا نفسى . لطالما رددت ، وسجلت فى ذاكرتى كل ما عساى أقوله للتأثير عليها ، لتحريك مشاعرها . واذا بى فجأة قد نسيت كل شيء . انمحى كل شيء من مخيلتى . لقد مات كل شيء فى نفسى ولم يعد يخالجنى سوى حاسة تكتوى بنار الآلام ، لقد استولى على قلبى حقد قاتل ، كل ما كان لى من طوية سليمة قد ولى من نفسى وأصبحت فريسة للأرواح الشريرة !

شريوسبورى : سيطرى على الغضب الكامن فى نفسك . هيمنى على غصة فؤادك ، ان التباغض لا يثمر سوى الاسى . ارضخى للامر الواقع بالرغم من هذا النفور الشديد . انها أقوى منك بأسا ، فكونى أكثر خشوعا .

مارى : لن أقوى على ذلك ، أمامها .

شريوسبورى : اضغطى على نفسك بالرغم منك . إلتزمى فى حديثك معها الاحترام والهدوء . استلهمى كرم نفسها . لا تستفزيها ، ليس الآن . لا تدافعى عن حقوقك ، فليس هذا هو الوقت المناسب .

مارى : أسفاه ! لقد سعيت الى هلاكى . ولسوء طالعى استجابوا لرجائى . ما كان ينبغى أن نلتقى أبدا ، أبدا !

شريوسبورى : تريثى حتى ترى وجهها . لقد بدا عليها التأثر العميق عند اطلاعها على خطابك ، واغرورقت عيناها بالدموع . انها ليست جامدة الحس ، فروضى نفسك على أن تأنسى اليها بعض الشىء . انما أردت أن أمهد لك جو هذه المقابلة ، لكى أحفز شجاعتك .

مارى : (**تتناول يده بين يديها**) تالبوت ، انى أعتز دائما بصداقتك ، لماذا أبى الله على أن أظل تحت حراستك الرحيمة ؟ لقد أغلظوا معاملتى يا شريوسبورى .

شريوسبورى : عليك الآن أن تنسى كل شىء .

مارى : وبورليج ، أهو معها ؟

شريوسبورى : ليس فى معيتها أحد سوى الكونت دى ليستر .

مارى : ليستر ؟

شريوسبورى : لا تخشى شيئا ، انه لا يتمنى لك الموت . واليه يرجع الفضل فى موافقة الملكة على مقابلتك .

مارى : آه ! لقد كنت على يقين من ذلك !

شريوسبورى : ماذا تقولين ؟

بوليه : ها هي الملكة . **(ينتحيان جانبا ، تظل ماري بمفردها مستندة على ذراع كنيدى ، تدخل اليزابيث والكونت دي ليستر ثم الحاشية) .**

اليزابيث : (الى ليستر) ما اسم هذا المكان ؟

ليستر : قصر (فازرنجهاى) .

اليزابيث : (الى شريوسبورى) فليتقدمنا ركب الصيد الى طريق لندن . انهم يتعجلون سبيلنا الى حد الارهاق . عسانا نجد مكانا نستظل به فى هذه الحديقة **(يعمل تالبوت على ابعاد الحاشية ، تثبت اليزابيث نظرها فى عينى مارى ، ثم تخاطب ليستر)** ان شعبى الحبيب ليتفانى فى حبى . طابع حفاوته يتميز بالمغالاة ، بل يميل الى الافتتان .. فى حين لا يكرم على هذه الصورة الا الآلهة .

مارى : (التى ظلت مستندة الى مربيتها فى شبه اغماء) هذه المراة لا قلب لها .

اليزابيث : من تكون هذه السيدة ؟ **(صمت شامل)**

ليستر : لقد حللت فى (فازارنجهاى) ، يا صاحبة الجلالة .

اليزابيث : (تتظاهر بأنها أخذت على غرة وتحدج ليستر بنظرة متوعدة) من المسئول عن هذا ، يا لورد ليستر ؟!

ليستر : يا صاحبة الجلالة ، بما أن عناية السماوات قد قادتك الى هنا ، فدعى الموقف لفيض كرمك .

شريوسبورى : عودى الى ليونة طبعك ، ياصاحبة الجلالة . **(تنتصب مارى وتحاول أن تتقدم نحو اليزابيث ، لكنها**

تتوقف فى منتصف المسافة ، حركاتها تنم عن توتر بالغ) .

اليزابيث : كيف ؟ من منكم أيها السادة ، الذى حدثنى عن إمرأة كسيرة القلب ؟ انى أجد هنا امرأة متكبرة ، لم تنل منها الاهوال مطلقا ولم تستفد هى منها شيئا !

مارى : اذن ، فليكن ما يكون ، سأحاول أن أجتاز هذه المحنة أيضا ، سأحاول أن أنسى من أنا وأتجاهل وطأة الملى (**تلتفت نحو الملكة**) يا أخت الملوك ، لقد أيدتك السماوات بنصر من عندها وكان الفوز حليف تاجك . انى لأسجد للاله الذى شاءت قدرته أن ترفعك الى ذروة المجد (**تجثو على ركبتيها**) فلا تضنى على وأنت القادرة بما تستوجبه المروءة . لا تتركينى فريسة لشقائى . ابسطى لى يدك الملكية لتنتشلنى من المهانة التى ترديت فيها .

اليزابيث : (**متراجعة**) أنت فى وضع يتناسب مع موقفك ، وانى لأشكر الاله الذى تعالت قدرته على أنه لم يقدر لى ذل الركوع يوما عند قدميك ، كما أنت جاثية الآن عند قدمى .

مارى : (**بانفعال يتزايد شيئا فشيء**) تبصرى فى تقلبات الزمن وعنت الدنيا . ان الله لا يحب الصلف ولا يفلت المتكبر من عقابه . وهو سبحانه الذى يحملنى على الركوع عند قدميك ، ان تكريمك لى ان هو الا تكريم لذات نفسك ، فى نظر الاغراب الذين يحيطون بك . لا تحطى من شأن دماء آل تيودور التى تتدفق فى عروقى تدفقها فى عروقك . أوه ! لا تقفى منى هذا الموقف الجامد كالصخرة الوعرة التى يحاول الغريق المنكود عبثا أن يلوذ بها . ان حياتى ومصيرى يتوقفان

على قدرة دموعى وجزالة بيانى . لا تعصفى بقلبى ولا تسلبيه القوة التى تعينه على الوصول الى شغاف قلبك . ان نظرتك التى لا حياة فيها تشله وتروعه .

اليزابيث : (**بفتور وخشونة**) ما الذى تريدين ان تقوليه لى ، يا سيدتى ؟ لقد التمست الاذن بالتحدث الى ، وسأحاول جاهدة أن أتناسى انى ملـــكة وانك بالغت فى خدش كرامتى حتى أتمكن من تلبية نداء الاخوة المقدس . انى أمنحك الامان لعلك تجدين العزاء فى حضرتى ، وبذلك أرضى نزعة الــكرم المتغلغلة فى نفسى كما أعرض نفسى للملامة التى يجرها على نزولى الى هذا الدرك .

مارى : كيف ومن أين ينبغى لى أن أبـدأ ؟ كيف السبيل الى اختيار الالفاظ التى تقتصر على تحريك أوتار قلبك دون المساس بكرامتك ؟ الهى ، اضف الى كلمـــاتى قوة التعبير والاعجاز واعفنى من التعثر والزلل . أسفاه ، لا حيلة لى فى الدفاع عن نفسى دون التعرض لاتهامك الا بتجاوزى عن هذا الحق المشروع ، أنا ملكة وأنت صنوى ، وقد القيت بى مع ذلك فى السجن . لقد سعيت الى هذا البلد مستنجدة بك ، فاذا بك تزجين بى فى غياهب سجن حالك الظلمة دون مراعاة لحقوق الضيافة السمحة . لقد فرقوا بينى وبين أنصارى بمنتهى القسوة ، وشتتوا شمل أتباعى ووضعونى فى وضع غير كريم . ثم قدمونى الى محكمة متعسفة ، ولكنى سأحاول مع ذلك أن أنسى كل ما نالنى من غلظتك ، وان أعزو كل شىء لقسوة القدر . ما أنت بمذنبة ، وما أنا بمذنبة كذلك ، لقد

اندس بيننا شيطان رجيم انطلق من جهنم ليوقد نار الحقد فى قلبينا ، ففرق بيننا منذ أول مراحل حداثتنا . ولقد نما الحقد وترعرع معنا . كنا ضحايا لدسائس نفر من ذوى السرائر الفاسدة ، أضرموا بيننا نار الفتنة . ما أشأم مصير الملوك الذين يجرون شعوبهم الى هوة شقاقهم ومنازعاتهم الخاصة ، فيصبوا عليهم جام غضبهم حتى يمزقوا شملهم!.. إننا الآن نتحدث بعض الى بعض دون ما وساطة أو تشيع **(تدنو من اليزابيث وتخاطبها بلهجة آمنة رقيقة)** اننا فى مواجهة بعضنا وجها لوجه . نبئينى عن جريرتى وأنا على استعداد لأية ترضية . أسفاه ! لماذا كنت تمتنعين عن رؤيتى كلما كنت ألح فى طلب ذلك ؟ لو فعلت ، لما وصلنا الى هنا .

اليزابيث : لا تتهمى القدر ، بل عليك أن تتهمى سواد قلبك ، والمطامع الجارفة للسلالة التى انحدرت منها . لم تك بيننا أية بغضاء عندما أشهر عمك الحرب ضدى ، ذلك القس المتأله الطاغية ، الذى تتطاول يده الملطخة على كل تاج ، ولا عندما أوعز اليك باغتصاب أسلحتى وانتحال القابى الملكية والاستماتة فى مقاتلتى : انه لم يترك أحدا الا وحفزه ضدى ! حتى هنا داخل مملكتى الآمنة ، بذر بذور العصيان ، لكن الله كان معى ، وما كان عمك لينتصر فى ساحة القتال . لقد كان رأسى هو الهدف فى هذه المناورة . فاذا برأسك هو الذى يهوى .

ماري : أنا وديعة بين يدى الله . ولا أظنك تستبدين بقوتك الى حد البطش بى ؟!

اليزابيث : ومن ذا الذى يمنعنى من ذلك ؟ لقد نشر عمك بين جميع ملوك العالم طريقته في عقد الصلح مع أعدائه !.. واذكر على سبيل المثال موقعة (بارتلمى) . أى وزن أقامه لروابط القربى وحقوقها ؟ لقد أباحت الكنيسة التحلل من جميع القيود وهى تناصر الباطل وتستحل دم الملوك . انى أطبق تعاليم رهبانكم . الا خبرينى : ما عسى أن يكون الضمان لو أنى بمنتهى الكرم ، خلصتك من الاسر ؟ هل هناك شبه ضمان يكفل لى الاطمئنان اليك ، ولا تستطيع روما أن تحلك منه ؟ القوة هى المأمن الوحيد ، لا سبيل الى التفاهم مع فصيلة الافاعى هذه !

مارى : لقد عاملتنى دائما على اعتبار أنى غريبة ، بل وعدوة . وهذا أثر من آثار قلقك وريبتك ، ولو أنك اعترفت بحقى فى ارثك ، كما تقضى بذلك العدالة ، لكنت لك أدنى قريبة وأوفى صديقة على مدى الحياة .

اليزابيث : اعترف بك وريثة لى ؟ اتركك – وما زلت على قيد الحياة – تضللين شعبى ، وتخدعين شباب المملكة بحيلك ودسائسك الغرامية ، لاجتذابه نحو مليكته المقبلة ، بينما أنا ..

مارى : انعمى بالحكم فى سلام . انى متنازلة عن جميع حقوقى فى هذا العرش . أنا لم أعد شغوفة بمظاهر العظمة ، وانت قد بلغت غايتك . ما أنا الا ظل مارى ستيوارت . لقد تحطمت شجاعتى خلال هذا الاسر المهين . فلتضعى حدا لهذا العذاب ، ياأختاه . لاأريد أن يداخلنى الشك فى أنك ما

جئت الى هنا الا لتجريح ضحيتك بهــذه الفظاظة . قولى لى : « أنت حرة يا مارى . والآن ، وقد لمست مدى سلطانى، عليك أن تقدرى مبلغ كرمى وسـخائى » ./. قولى لى ذلك فأتقبل حريتى وحياتى على أنهما هدية من يدك . كلمة منك تمحو الماضى بأسره . لا تدعينى أطيل الانتظار . ويل لك اذا تركتنى دون أن تنطقى بهذه الكلمة . فوالله لو أوتيت جاه العالم كله لما قبلت أن أقف منك هذا الموقف الذى تقفينـه منى الآن !

اليزابيث : أتسلمين فى النهاية بهزيمتك ؟ ألا تعودين بعد الآن لدسائسك ؟ أما من جريمة أخرى تدبر فى الخفاء ؟ أما من أفاك يحاول ان يقدم لك ثمن عمل منكر يأتيه فى سبيلك؟ لقد انتهى كل ذلك . لم يعد شىء منه ممكنا . لن تستطيعى ايقاع الناس فى حبائلك بعد الآن ، فللناس مشاغل أخرى . وما من أحد يرغب فى أن يصبح زوجك الرابع ، بعد أن شاع عنك انك تقتلين عشاقك وأزواجك على السواء !

مارى : أختاه ! هبنى يارب من لدنك القوة حتى أسيطر على حواسى !

اليزابيث : (**تنظر شذرا الى مارى**) أهذه يا ليستر هى المفاتن التى خلبت لب الرجال وخلفت لهم الحسرة ، والتى عز على نساء العالم أن يتعرضن لمنافستها ؟.. حقـا ، انه لصيت زائف ، رخيص المنال ! فهـو لا يساوى أن يصبح مقياسا للجمال العالمى ، الا عن تبذل واستهتار .

مارى : هذا كثير !

اليزابيث : ها أنت تكشفين الآن عن وجهك الطبيعى : وما كان قبل ذلك الا قناعا زائفا .

ماری : (وقد تملكها غضب شديد ، ولكن فى كثير من الاباء) لقد ارتكبت بعض الذنوب ، بتـأثير غواية الشباب وغرور السلطان ، ولكنى لم أحاول اخفاءها قط !.. كنت دائمـا أمقت النفاق ، وأتصرف بحرية الملكات . والعـالم يعرف مساوئى ، ولكن شتان بين سمعتى وحقيقة شخصيتى . أما أنت فتبا لك ! ان دثار الفضيلة الذى تسترين به أفعالك ، ونزعتك الملحة الجامحة ، وشهوتك التى لا ترتوى الا سرا . سينزع ذلك كله عنك يوما . انك لم ترثى عن أمك حاسة الشرف ، فالعالم بأسره يعرف السبب الذى جعل آن دى بولين تصعد الى المقصلة !

شريوسبورى : (مندفعا بين الملكتين) يا آلهة السماوات ! أكان لزاما أن نصل الى هذا الحد ! أهـذا هو الاعتدال والامتثال ؟!

ماری : الاعتدال ؟ لقـد تحملت أقصى ما يستطيع انسان أن يتحمله .

شريوسبورى : لقد خرجت عن حسمها . اغفرى لها سورة غضبها ، فقد أثارتها شدة الاهانة . **(اليزابيث ، وقد عقـد الغضب لسانها ، تكاد تلتهم مارى بنظراتها الساخطة)** .

ليستر : (وهو فى منتهى الاضطراب ، يحاول أن يبعد اليزابيث) لا تصغى اليها . ابتعدى عنها ، ابتعدى .

ماری : ان عرش انجلترا قد دنسته زانية بنت زانية ،

وشعب هذا البلد المتسامح سحرته ساحرة . لو قدر للحق أن ينتصر ، لكنت عند قدمى تتمرغين فى التراب ، فما أنا فى الحق الا مليكتك ! (**تخرج اليزابيث ، يتبعها اللوردات فى حالة اضطراب شديد**) .

كنيدى : ماذا فعلت ؟ لقد انتهى كل شىء الآن ، قضى على كل أمل .



(ماری ملكة اسكتلندا - وتلعب دورها « موريل شانيه » - مع اليزابيث ملكة انجلترا)
ماری : ان الله لا يحب الصلف ولا يفلت المتكبر من عقـــابه .
(الفصل الثالث)

مارى : لقد أثرت حفيظتها ، طعنتها فى صميم قلبها ! **(تلقى بنفسها مطوقة عنق كنيدى)** أوه ! جان ، لكم أنا سعيدة ! أخيرا ، أخيرا ،بعد سنوات طويلة من الذل ، والالم ، ظفرت بلحظة قصيرة جمعت فيها بين التشفى والانتصار . لقد أزيح عن قلبى عبء ثقيل ، وغمدت خنجرى فى صدر عدوتى !

كنيدى : أيتها التعسة ! لقد أهنت هذه المرأة الفظة أمام عشيقها ! أنها قادرة على سحقك ، انها ملكة .

مارى : نكلت بها أمام ليستر ، فشهد انتصارى . لقد كان هنا عندما انزلتها من أعلى عليائها . ان محضره كان حافزا لى على ذلك **(يدخل مورتيمير)** أوه ! سيدى !

مورتيمير : لقد قهرتها ، وطأتها بنعليك ، كنت أنت الملكة ! لقد زودتنى شجاعتك بالحماس ، وها أنا أخر ساجدا عند قدميك . انى أراك الآن وقد أحاطت بك هالة من السماء .

مارى : هل تحدثت الى ليستر ، هل سلمته خطابى وصورتى ؟

مورتيمير : (يتفرس فيها بنظرات ملتهبة) ما كان أروعك حين تجلى سخطك الملكى ، وما كان أبلغه فى ابراز محاسنك ! لأنت بحق أجمل النساء .

مارى : أتوسل اليك ، يا سيدى ، خفف من وطأة قلقى . ما الذى قاله ليستر ؟ وما الذى أستطيع أن أتعلل به ؟

مورتيمير : ما لنا وله . أريد ان انقذك ، انا وحدى .

مارى : أسفاه ! وما حيلتك ؟

مورتيمير : لا سبيل الى العفو عنك بعد الآن ، ولا أمل لك فى النجاة بعد هذه المقابلة ، سيما بعد أن تركتك الملكة على هذا النحو . لقد حان الآن وقت العمل . لا بد للجرأة من أن يعقبها العزم . ستكونين طليقة عند الشروق .

مارى : ماذا تقول ؟ هذه الليلة ؟ وكيف يتاح لنا ذلك ؟

مورتيمير : اليك ما استقرت عليه عزيمتنا . لقد جمعت رفاقى فى أحد المعابد السرية ، قام أحد الرهبان بالاستماع الى اعترافاتنا ثم غفر لنا جميع ذنوبنا فى الماضى والمستقبل. لقد تناولنا القربان الاخير وتأهبنا للقاء الموت . سنتساق ، هذه الليلة ، أسوار القصر ، فنقتل الحراس وننتزعك من سجنك !

مارى : و « درارى » و « بوليه » ، حارساى ؟ انهما سيبذلان بلا شك آخر قطرة من دمائهما قبل أن ..

مورتيمير : سيكونان أول من تصرعهم ضرباتنا .

مارى : ماذا ! عمك !

مورتيمير : نحن فى حل منذ الآن من جرائمنا . بوسعى أن ارتكب ابشعها ، بل أنا مشوق اليها . لو تعين على أن أطعن بيدى الملكة نفسها ، لما ترددت . لقد أقسمت على ذلك أمام المسيح .

مارى : لا يا مورتيمير .. فقبل أن تراق كل هذه الدماء من أجلى ..

مورتيمير : ماذا يهمنى من الدنيا ؟ أنا لا أدين الا بك وبحبى!

مارى : ياله من أسلوب يا مورتيمير ، ويالها من نظرات !

مورتيمر : ما الحيــاة الا وميض ! وما الموت الا كذلك ! (**يدنو منها ليأخذها فى أحضانه**) ماضرى لو . .

مارى : هل أعرضت عنى السماء وملائكتها اذن ؟! ألم أولد فى هذه الدنيا الا لاثارة القلاقل ؟ هل تكاتف البغض والحب على ازعاجى ؟

مورتيمر : انى أكن لك من الحب قدر ما يضمرون لك من البغض !

مارى : لا أظنك تجهل قدر نكبتى يا سيدى ، وآلامى ، أو على الأقل مكانتى كملكة .

مورتيمر : لم يعد لك شىء من متاع الدنيا . حاولى أن تصدرى أمرا ملكيا ، أو تبدى رغبة سامية ، وسترين أنه ما من صديق يلبى أو منقذ يتقدم . لم يبق لك من سلطان الا جمالك الربانى . انه هو الذى يبعث فى القـوة على الاقدام على كل شىء والتغلب على أى شىء ، بل وهو الذى يدفعنى دفعا نحو الموت .

كنيدى : (**هارعة**) انهم قادمون ، الحديقة مكتظة بالرجال المدججين بالسلاح !

مورتيمر : (**ممسكا بقبضة سيفه**) سأحميك .

مارى : جان ، انقذينى . (**تهرب متجهـة نحـو البيت ، تتبعها كنيدى . يدخل بوليه ودرارى فى حالة انفعال شديد ، يجتاز أتباعهم المسرح**) .

بوليه : أوصدوا الأبواب ، أوصدوا الأبواب !

مورتيمير : عمى ، ما الذى حدث ؟

بوليه : الملكة !

مورتيمير : الملكة ؟ أية ملكة ؟

بوليه : ملكة انجلترا ، اغتالوها على طريق لندن ! (**يخرج راكضا**) .

مورتيمير : هل أصابنى مس من الجنـون ؟ ألم أسمع الآن : أن ملكة انجلترا أغتيلت ؟

اوكلى : (**هارعا**) اهرب ، اهرب ، يا سيدى ، لقد ضاع كل شىء .

مورتيمير : ما الذى ضاع ؟

اوكلى : لقد ضرب « سافاج » ضربته .

مورتيمير : إذن فالخبر صحيح ؟

اوكلى : أجل ، أجل ، أنج بنفسك !

مورتيمير : لقد أغتيلت ، ومارى سترتقى عرش انجلترا !

اوكلى : ماذا تقول ؟ أغتيلت ! انها لاتزال على قيد الحياة ، ولقد هلكنا .

مورتيمير : على قيد الحياة ؟

اوكلى : كانت ضربة طائشة ، وقد جرد « تالبوت » **القاتل** من سلاحه . تعال ، لقد شرعوا فى محاصرة الحديقة .

مورتيمير : من الذى قام بهذا العمل الجنونى ؟

اوكلى : أحد رجال الدين من (طولون) ، وقد كان قابعا فى الكنيسة عندما كان الراهب يحدثنا عن نقمة البابا . لقد

كان معتزما أن يخلص الكنيسة ويضم اليها تاج القتيلة . كان الراهب وحده هو المطلع على خطته .

مورتيمير : **(بعد صمت طويل)** أى مارى ! ان الأقدار القاسية تطاردك . أيتها المنكودة ، ستلقين الآن حتفك . حتى من تصدى لانقاذك قد عجل بهلاكك !

اوكلى : الى أين تستطيع أن تلتجىء ؟ سأختبىء أنا فى غابات الشمال .

مورتيمير : اهرب ، كان الله فى عونك . أما أنا فسأبقى ، سأحاول مرة أخرى أن أنقذها !

الفصل الرابع

المنظر الأول

غرفة انتظار فى قصر وستمنستر

أوبسبين : كيف حال صاحبة الجلالة ؟ أيها السادة ، أنا فزع مما حدث ، كيف يمكن أن يقع عدوان كهذا بين صفوف هذا الشعب الوفى ؟

ليستر : ليس الجانى من أبناء هذا الشعب ، بل هو أحد رعاياكم ، فرنسى لحما ودما .

أوبسبين : مخبول ولا شك .

ليستر : رجل من شيعة البابا ، يا كونت . **(يدخل بورليج ودافيسون)** .

بورليج : أكتب حالا صيغة أمر التنفيذ واشفعه بخاتم الدولة . وعندما تنتهى منه ، احمله الى الملكة لكى توقعه . هيا ، لاتضيعن الوقت .

دافيسون : طوع أمرك . **(يخرج)** .

أوبسيين : **(الى بورليج)** سيدى . انى أشاطر هذا الشعب فرحته العميقة . حمدا لله الذى خفف وقع هذه الضربة على ذات صاحبة الجلالة .

بورليج : حمدا لله على احباط غدر أعدائنا .

أوبسيين : جعل الله نار جهنم عقابا لمن ارتكب هذه الفعلة الشنيعة !

بورليج : لمن ارتكبها ومن أوعز بها .

أوبسيين : **(الى كنت)** أتسمح لى ، يا سيدى الماريشال ، بالمثول بين يدى جلالتها ، حتى أقدم لها خاشعا عند قدميها أحر تهانى سيدى ومليكى ؟

بورليج : لاتكلف نفسك هذا العناء ، يا كونت .

أوبسيين : لورد بورليج ، انى أعرف واجباتى .

بورليج : واجبك أن ترحل عن هذه الجزيرة فى أسرع وقت ممكن !

أوبسيين : ماذا تقول ؟

بورليج : مازلت اليوم تتمتع بحصانتك ، ولكنها قد لاتنفعك غدا !

أوبسيين : اذن ، ما نوع الجريمة التى ارتكبتها ؟

بورليج : لو فهت بها ، لما غفرتها لك يوما .

أوبسبين : ان امتيازات السفراء ..

بورليج : لاتحمى الخونة .

أوبسبين : أتعنى ماتقول ؟

بورليج : لقد وجد مع المتهم تصريح بالسفر مكتوب بخطك .

أوبسبين : كثيرا ما أوقع تصاريح السفر . أنا لا أستطيع أن أطلع على سرائر طالبيها .

بورليج : لقد استقر المعتدى على قراره فى عقر دارك .

أوبسبين : ان دارى مفتوحة ..

بورليج : لكل أعداء انجلترا .

أوبسبين : انى أطالب باجراء تحقيق .

بورليج : يحسن بك أن تتجنبه ..

اوبسبين : انك تهين مليكى فى شخصى . سيؤدى ذلك الى الغاء المعاهدة التى أرتبط بها .

بورليج : لقد سبقته الملكة الى الغائها ، لم تعد هناك معاهدة ، ولا زواج ، أيها السيد دى كنت ، أنت مكلف بمرافقة الكونت الى أقرب الموانىء . لقد هجم الشعب الثائر على داره حيث ضبطنا خلية كاملة . اذا ظهر أمام الشعب فقد يفتك به ، عليك باخفائه الى أن تهدأ الحال . أنت مسئول عن حياته .

اوبسبين : انى أرحب بالرحيل ، بمغادرة هذا البلد الذى تداس فيه الحقوق وتنتهك المعاهدات . ولكن مليكى سيصر على تسوية دامية .

بورليج : فليسع اليها بنفسه . (**يخرج أوبسيين وكنت**)

ليسستر : وهكذا تفسخ بنفسك الخطبة التى طالما دعمتها ودعيت اليها بكل شدة . أن انجلترا لن تهتز لصنيعك هذا . ولذا كان يحسن بك أن توفر على نفسك هذا العناء .

بورليج : كنت حسن النيـة ، وكانت ارادة الله تتعارض مع ارادتى ، ما أسعد الانسان الذى لايجـد فى قرارة نفسه صغيرة أو كبيرة يحاسبها عليها !

ليسستر : ان موقفك لايخفى على أحد كلما سنحت لك سانحة لتعقب جريمة من جرائم الحكم . هذه أكبر متعة لك . جريمة منكرة تقترف وما زال الغموض يحيط بالفاعل . لابد من تأليف محكمة خاصة توزن فيها الكلمات والنظرات ، بل وتترجم الخواطر نفسها الى اتهامات . عند ذلك تصبح أنت سيدالموقف ، بل المارد الذى ترتكز على كتفيه انجلترابأسرها .

بورليج : انى أعترف بأنك أستاذى ، يا سيدى الكونت ، فقد أحرزت بعبقريتك انتصارا لم أحرزه فى حياتى .

ليسستر : ماذا تعنى بذلك ؟

بورليج : لانزاع فى أنك انت الـذى استدرجت الملكة الى قصر (فازرنجهاى) فى غفلة منى .

ليسستر : فى غفلة منك ؟ ومتى كنت أخشى اطلاعك عـلى أعمالى ؟

بورليج : اكانت تواتيك الشجاعة فتصطحب الملكة الى قصر (فازرنجهاى) ؟ محال ، وما كنت لتستطيع أن تحرضها

على هذه الزيارة ، لولا أنها هى التى ألحت فى دعوتك اليها ، أليس كذلك ؟

ليستر : أفصح ...

بورليج : لقد أوقفت الملكة موقفا رائعا ! وسجلت لهـا نصرا مبينا ! هذه هى المروءة ، وهذا هو الاتزان الذى حملك على التهجم فجأة أثناء انعقاد المجلس الخاص ! بل هـذا هو السبب فى أن مارى ستيوارت هـذه كانت عدوة بغيضة حقيرة لاتستحق أن يلوث العـاقل يده بدمها . خطة بالغة الدقة واللباقة ، ولكنها متطرفة فى الدقة الى حد أنها باءت بالفشل . يا للخسارة !

ليستر : أنت تحيك وشاية خسيسة . اتبعنى حالا الى حيث نحتكم الى الملكة ، على أن تتمسك بادعائك أمامها !

بورليج : ستجدنى فى انتظارك . واجتهد أيهـا الكونت ان تواتيك الفصاحة هناك . (**يخرج**) .

ليستر : (**بمفرده**) لقـد انفضح أمرى . ويل لى اذا كانت لديه أدلة ضدى ! سأهلك لامحالة . سوف يؤول الحاحى على الملـكة بالذهاب الى (فازرنجهـاى) على أنه خيانة . ستتهمنى بأنى سلمتها الى ألد أعدائها وأوقفتهـا منهـا موقفا ذليلا . كل شيء سيبدو مدبرا . تطور المقابلة المرير ، انتصار مزاحمتها واغتباطها ، ستتهمنى أيضا بأنى أنا الذى زودت القاتل بالسلاح !

مورتيمر : (**قادما فى شدة الاضطراب ، ينظر حوله فى فزع**) سيدى الكونت ..

ليستر : ارحل !

مورتيمير : انهم يقتفون أثرنا ، وأثرك أيضا ، لقد علموا أن اجتماعا سريا عقد فى دار الكونت دى لوبسبين .

ليستر : وما شأنى أنا !

مورتيمير : وان القاتل كان حاضرا هذا الاجتماع !

ليستر : هذا من شأنك أنت ، أيها المخبول ! كيف اجترأت على اثارة الشبهة ضدى فى هذه المحاولة الدامية ؟! تول بنفسك الدفاع عن أعمالك !

مورتيمير : ترفض الاصغاء الى ! وقد جئت لأحذرك ؟ انهم على علم باشتراكك فى ..

ليستر : ماذا !

مورتيمير : لقد ذهب وزير المال الى قصر (فزرنجهاى) عقب الاعتداء مباشرة . فتش مسكن الملكة بمنتهى الدقة وعثر على مقدمة خطاب موجه اليك من مارى ستيوارت ، تطلب اليك فيه أن تفى بوعدك ، وتجدد لك العهد بأن تمنحك يدها ، وتشير الى الصورة التى أرسلتها اليك . ان الخطاب تحت يد بورليج ، عليك بالعمل دون توان . حذره من استعمال هذا السلاح . اعمل على انقاذ نفسك وانقاذ مارى . أما أنا ، فلم يعد فى مقدورى عمل أى شىء . لقد تشتت شمل رفاقى وأحبطت المؤامرة . سأرحل على جناح السرعة الى اسكتلندا لكى أكون مجموعة جديدة من الأنصار . كل شىء يتوقف الآن عليك وحدك . حاول أن تستغل نفوذك ، جرأتك .

ليستر : أنت محق . (**يتجه نحو الباب ويفتحه**) أيها الحراس ! (**الى الضابط الذى دخل مع الحراس**) اقبض على هذا الرجل ، واياك أن يفلت منك . لقد اكتشفت الآن أخس مؤامرة . أنا ذاهب لابلاغ الخبر الى الملكة . (**يخرج**)

مورتيمر : (**منزعجا للمفاجاة فى أول الامر ، ثم متمالكا نفسه**) أوه يا الهى ! ما الذى جعلنى اعتمد عليه ؟ لقد ضحى بى ، وسيتيح له موتى سبيل النجاة !.. اذن فلينج ! سأمسك عن الكلام ، فأنا لاأريد أن أجره معى الى نفس الهوة . لا أريد أن يجمع الموت بيننا فى نفس المصير . الحياة متاع يرفعه الاشقياء فوق كل اعتبار . (**الى الضابط الذى يقترب منه ليلقى عليه القبض**) انى اهزأ بك . أنا حر طليق النفس . (**يستل خنجرا**) لعنة الله على الذين خانوا ربهم ومليكتهم وباعوا انفسهم لابنة الزنا ! أى حبيبتى ، اذا كنت لم أستطع أن اخلصك ، فلا أقل من ان أعطيك مثلا فى الشجاعة . يا أم يسوع ، صلى من أجلى ، وأحسنى لقائى فى ملكوت السماء . (**يطعن نفسه بالخنجر ويسقط بين أيدى الحراس**) .

المنظر الثانى

جناح فى قصر الملكة . اليزابيث تحمل فى يدها رسالة ، وأمامها بورليج .

اليزابيث : يهزأ بى هكذا ! يجعلنى أضحوكة عشيقته ! ما من امرأة خدعت هذه الخدعة !

بورليج : أنا لا أفهم كيف سحرك . وبأى سلطان تمكن من طمس بصيرتك !

اليزابيث : هذا ما أموت منه خجلا . لابد وأنه كان يسخر من ضعفى ! كنت أحسب أنى أحط من قدرها ، فاذا بى كنت موضع السخرية !

بورليج : لعلك قد عرفت الآن قيمة نصائحى .

اليزابيث : ولقد عوقبت أشد عقاب لأنى لم أستمع اليها . أكان بوسعى أن لا أصدقه ؟ هل كان على أن أتوقع شركا يحيكه لى من حبائل غرامه وحرارة وعوده ؟ من ذا الذى أئتمنه اذن ، اذا كان هو يخوننى ، هو الذى رفعته الى أعلى المناصب ، هو الذى كنت أحبه أكثر من سواه والذى سمحت له أن يصول فى البلاط كما يصول السيد ، بل الملك ؟!

بورليج : وفى غضون هذا كله ، كان يخونك مع ملكة اسكتلندا !

اليزابيث : ستدفع الثمن الباهظ من دمها . هل حررت صيغة الحكم ؟

بورليج : لقد تم كل شىء وفقا لأوامرك .

اليزابيث : يجب أن تموت ، وأن يرى هو رأسها وهو يهوى ثم يموت بعدها !.. لقد لفظته من قلبى ! فليذهب مثلا لقسوتى كما كان عنوانا لضعفى . فليرسل الى القلعة ، سأعين قضاته ليلقى أشد عقوبة فى القانون !

بورليج : سيحاول أن يظفر بقربك ، وأن يبرر موقفه .

اليزابيث : وكيف يتسنى له أن يبرر موقفه ؟ أليست هذه الرسالة كافية لادانته ؟

بورليج : ولكن سطوة محضره ..

اليزابيث : لا أريد أن أراه . هل أصدرت أمرا بمنعه من الدخول ؟

بورليج : لقد فعلت . **(يدخل الحاجب) .**

الحاجب : السيد دى ليستر .

اليزابيث : لا أريد أن أراه . قل له أنى لا أريده .

الحاجب : لا أجرؤ أن أقول ذلك للسيد دى ليستر ، وهو لن يصدقنى .

اليزابيث : لقد أعليت مكانته حتى بات خدمى يخشونه أكثر منى !

بورليج : **(للحاجب)** الملكة تأمره بعدم الدخول . **(يخرج الحاجب مترددا) .**

اليزابيث : **(بعد فترة سكون)** ولم لا يجوز ذلك ! لو أمكنه أن يبرىء نفسه ! قل لى ، ألا يحتمل أن يكون ذلك فخا تنصبه لى مارى ستيوارت ، كى تفرق بينى وبين أعز أحبابى ؟.. آه يا أخس الفاجرات ! لعلها قد كتبت هذه الرسالة لتنفث فى قلبى سم الشكوك وتقضى على من تكرهه !

بورليج : يا صاحبة الجلالة ، تذكرى .. **(يدفع ليستر الباب بعنف ويدخل مفعما بالثقة فى نفسه ، مطمئنا الى علو مكانته) .**

ليستر : أريد أن أرى ذلك الدعى الذى يزعم أنه يستطيع

أن يمنعنى من الدخول لدى الملكة ! أهكذا أنحى أنا ؟! أو يحق ليورليج أن يكون هنا ، ولا يحق لى ذلك !؟

بورليج : أنت شديد الجرأة يا سيدى الكونت ، لدخولك الى هنا عنوة ، متحديا الأوامر !

ليستر : وأنت فى غاية الوقاحة لأنك تحاول أن تكون صاحب الكلمة هنا . الأوامر ؟ ليس لأى انسان فى البلاط أن يصدر لى الأوامر ! **(يقترب من اليزابيث فى كثير من الاعتبار)** أريد أن أتلقى من الملكة نفسها ما . .

اليزابيث : (دون أن تنظر اليه) ابتعد عنى . انك لتعس .

ليستر : أنت لا تصدرين عن نفسك . انى ألمس هنا ألفاظ اللورد بورليج عدوى . لقد استمعت اليه وأنا أصر على أن تسمعى لى أنا أيضا !

اليزابيث : تكلم . زد جرمك خطرا بمحاولة انكاره .

ليستر : ابعدى المتطفلين أولا . لك أن تنسحب يا سيدى ، ان جدالى مع الملكة ليس فى حاجة الى مستمعين .

اليزابيث : (الى بورليج) آمرك أن تبقى .

ليستر : ما دخل انسان ثالث بينى وبينك ؟ لدى ما أقوله للملكة التى أحبها . انى أدعم حقوق مركزى ، فهى مقدسة ، وأصر من جديد على أن يبتعد لورد بورليج .

اليزابيث : هذه اللهجة المتغطرسة لم تعد تناسبك قط . .

ليستر : بل تناسبنى لأنى حظيت بنعمتك التى رفعتنى الى هذا المستوى . قلبك هو الذى قلدنى هذا المركز السامى الذى أعرف كيف أفديه بحياتى . فليخرج بورليج ! فلست

فى حاجة الا لبضع لحظات أدفع فيها الشبهة عن نفسى .

اليزابيث : اذا حسبت أنه فى وسعك أن تقنعنى عن طريق الخطابة ، فأنت مخطىء .

ليستر : ومع ذلك فقد لجأ بورليج الى هذا الطريق . أما أنا فحسبى أن أحتكم الى قلبك لابرىء نفسى مما يشوبها فى نظرك . أنا لا أعترف بغير حبك حكما بيننا !

اليزابيث : يالك من صفيق ! بل هو أول من قضى بادانتك . أطلعه على الخطاب .

بورليج : ها هو .

ليستر : (يتعجل قراءته متجلدا) هذا خطاب من مارى ستيوارت .

اليزابيث : اقرأ وذب خجلا .

ليستر : كل الظواهر ضدى . ولكنى أؤمل برغم ذلك أن لاتقوم ادانتى على الظواهر .

اليزابيث : أتجرؤ على انكار صلتك بمارى ستيوارت ؟ وعلى أنك استلمت صورتها ، وأنك منيتها بتخليصها من الأسر ؟

ليستر : ما كان أسهل ذلك على ، لو كنت أحس بذنبى . ولكنى مطمئن الضمير . أعترف بأن ماجاء فى الخطاب صحيح .

اليزابيث : اذن ، ماذا تريد بعد ذلك ؟

ليستر : أنا لم أنكث بعهدى معك . كل خطئى ينحصر فى انى أحطت أفعالى بالكتمان . أنا لم أضمر السوء ، وكل ما



ماري ستيوارت تودع خدمها الوداع الأخير .

نيته هو انى أردت أن أسبر غور عدوتنا المشتركة حتى أبدع فى الاجهاز عليها .

بورليج : كيف ؟ أتحسب يا سيدى ..

ليسستر : لقد غامرت مغامرة خطيرة ، لايستبيحها لنفسه فى هذا البلاط الا الكونت دى ليسستر وحده . الكل يعرف مبلغ حقدى على مارى ستيوارت !.. ان مركزى ، والثقة التى تشرفنى بهـا الملكة ، لايمكن أن يتركا مجالا للشك فى أمانتى . ان الذى فضلته على الجميع ، يحق له كل الحق أن يسلك أى طريق ، مهما كان وعرا ، فى سبيل تأدية واجبه .

بورليج : بما أن نواياك كانت حميدة ، فلماذا أخفيتها ؟

ليسستر : سيدى ، من عادتك أن تسهب فى الدعاية قبل العمل ، وتروج له بنفسك ولو منفردا . هذه طريقتك . أما أنا ، فأفضل أن أعمل أولا ، على أن أقتصد فى الكلام اذا ما تكلمت .

بورليج : انما تتكلم الآن مكرها لمجرد أنك أرغمت على ذلك .

ليسستر : تفخر بأنك استبسلت استبسالا خارقا ، وبأنك أنقذت حياة الملكة وأزحت اللثام عن وجه الخائن الخؤون . تزعم أنك عليم بكل أمر ولا يستعصى شىء على ذكائك .. ما أنت الا جعجاع صالف ، اذ كان المفروض أن مارى ستيوارت ستكون طليقة اليوم رغما عن أنفك ، لو لم أحل أنا دون ذلك !

بورليج : انك كنت ..

ليسستر : بلى يا سيدى ، لقد استودعت الملكة سرها لمورتيمير . فتحت له قلبها ، حتى أنها عهدت اليه بمهمة

دامية تتعلق بمارى ستيوارت ، نفس المهمة التى ترفع عمه عنها بكل اباء . أليس هذا صحيحا ؟

بورليج : وكيف وصل هذا الى علمك ؟

ليستر : أما هو بصحيح ؟ وعلى ذلك ، ياسيدى ، أين كانت عيونك المبثوثة فى كل مكان حتى بلغ بها الانطماس أن مورتيمير هذا يعبث بك ، وانه أشد رجال البابا تعصبا ، وانه وسيلة آل دى جيز وصنيعة مارى ، الذى ما جاء الا ليخلصها ويغتال الملكة ؟

اليزابيث : مورتيمير ؟!

ليستر : هو الذى مهد لمارى الاتصال بى ، وهذا سبب معرفتى له . اليوم بالذات كان ينوى أن ينتزعها من سجنها ، كما صارحنى بنفسه . فأمرت بالقبض عليه ، ولما وجد أمره قد انفضح ولمس اخفاق خطته ، قضى على نفسه بنفسه !

اليزابيث : لقد خذلت خذلانا لم يسبقنى اليه أحد !

بورليج : وحدث هذا عقب مفارقتى لك ؟

ليستر : كنت أشد الناس أسفا على هذه الخاتمة ، اذ لو كان مورتيمير لايزال حيا ، لبدد اعترافه كل شبهة ضدى ، وهذا ما جعلنى أعهد به الى شهود الحال .

بورليج : تزعم أنه قتل نفسه ، أما أنت بقاتله ؟

ليستر : فليستجوب الحراس الذين تسلموه من يدى . **(يتجه نحو الباب ، وينادى . يدخل ضابط الحرس)** تفضل بابلاغ صاحبة الجلالة كيف قضى مورتيمير .

الضابط : كنت قائما بالحراسة فى الردهة عندما اقتحمها

سيدى الكونت بغتة وأمرنى بالقبض على الفارس باعتباره مجرما سياسيا . فاستولى على مورتيمير غضب شديد ، حمله على أن يستل خنجره ويغمده فى صدره وهو يصب لعنته على الملكة ثم لفظ أنفاسه وهوى عند أقدامنا .

ليستر : يمكنك أن تنسحب **(يخرج الضابط)** من الذى يرجع اليه الفضل فى انقاذك ؟ أهو اللورد بورليج ؟ هل كان على علم بالخطر المحدق بك ؟ أهو الذى صده عنك ؟

بورليج : سيدى الكونت ، أغلب الظن أن لك اليد الطولى فى موت مورتيمير هذا .

اليزابيث : ما الذى يصح لى أن أتصوره الآن ؟ اننى أميل الى تصديقك ، وأحجم عن تصديقك !.. أتصور تارة أنك مذنب ، وأستبعد ذلك تارة أخرى . آه ! لكم أمقت تلك التى كانت السبب فى كل هذا الأذى !

ليستر : لابد من موتها . انى أنادى الآن بضرورة موتها !.. كنت قد أشرت عليك بعدم تنفيذ العقوبة ، أما وقد حدث هذا ، فانى ألح فى سرعة تنفيذها !

بورليج : وأنت الذى تتكلم هكذا ؟

ليستر : مهما كانت معارضتى للالتجاء الى مثل هذه الاجراءات العنيفة ، فانى أتبين الآن بجلاء أن سلامة الملكة تقتضى سرعة القضاء على عدوتها . ولهذا السبب ، أقترح أن يصدر الأمر فورا .

بورليج : (الى الملكة) بما أن الكونت متعصب لهذه الفكرة

الى هذا الحد ، فانى أقترح بدورى أن يعهد اليه بمراسم التنفيذ .

ليستر : الى أنا !

بورليج : اليك أنت . انك لن توفق الى طريقة تبدد بها الشكوك التى مازالت تحوم حولك ، الا بدق عنق من أنت متهم بحبها !

اليزابيث : (محدقة فى ليستر) بورليج على حق . فليكن الأمر هكذا ، ولنقف عند هذا القرار .

ليستر : اذا توخينا العدالة ، فالمفروض أن علو منزلتى تحتم على أن أتجنب القيام بعمل كهذا هو فى الواقع أقرب وأنسب لرجل مثالك . فالانسان اذا كان مقربا الى الملكة كما هو حالى ، حق له أن يترفع عن النزول الى هذه المواقف . الا أنى ، لكى أبرهن لك على شدة تعلقى بصاحبة الجلالة ، أتنازل عن طيب خاطر عن الامتيازات التى يخولها لى مركزى ، وأقبل هذه المهمة البغيضة .

اليزابيث : سيعاونك فيها اللورد بورليج **(الى بورليج)** أعمل على انجاز أمر التنفيذ فورا . **(يخرج بورليج . تسمع جلبة فى الخارج . الى الكونت دى كنت الذى يدخل) :** ماذا هنالك يا سيد دى كنت ؟ ما هذه الجلبة ؟

كنت : يا صاحبة الجلالة ، انه الشعب قد أحاط بالقصر ويطلب بالحاح أن تظهرى أمامه .

اليزابيث : وما عساه يريد ؟

كنت : تروج الشائعات فى لندن بأن حياتك مهددة ، وأن

عددا من السفاحين من رسـل البابا منبثون حولك ، وأن الكاثوليك يتآمرون لانقاذ مارى ستيوارت وتنصيبها ملكة . والشعب يصدق هذه الشائعات ، فتثور ثائرته . ولذا فهو يطالب بتنفيذ حكم الاعدام .

اليزابيث : كيف ؟ أيريد اكراهى !

كنت : انه مصر على أن لايغادر الساحة قبل أن توقعى هذا الحكم . **(يدخل بورليج وفى أثره دافيسون حاملا ورقه)** .

اليزابيث : ما هذا الذى تحمله يا دافيسون ؟

دافيسون : لقد أمرت يا صاحبة الجلالة ..

اليزابيث : بماذا أمرت ؟.. **(تحاول أن تتناول الورقة ، لكنها ترتعد وتتراجع)** .

بورليج : اصغى الى صوت الشعب ، فما هو الا ترديد لصوت الله .

اليزابيث : وماأدرانى أيهاالسادة اذا كانهذا الصوتالذى أسمعه ، هو صوت شعبى بالاجماع ؟ لكم أخشى لو استمعت اليه ، ان يرتفع صوت آخر فيمابعد . وأن أشد الناس تحمسا لهذا الرأى قد يلومنى عليه بعد نفاذه !

شريوسبورى : **(داخلا)** يحاولون الضغط عليك ياصاحبة الجلالة . لا تسلمى . بل قفى موقفا حازما .

اليزابيث : أيها النبيل شريوسبورى ، انهم يعملون على اكراهى .

شريوسبورى : ما من أحد يستطيع ذلك . فأنت مطلقة التصرف . هذه ساعة اظهار قوتك . أسكتى هذه الأصوات

الفليظة التى اجترأت على تحدى ارادتك الملكية . الشعب مضطرب لشدة فزعه ، وأنت نفسك لست متمالكة لشعورك، فكيف يتسنى لك أن تبتى فى الأمر ؟

اليزابيث : الأمر لا يحتاج الى بت ، بل الى تنفيذ حكم .

كنت : (الذى كان قد خرج عند دخول شريوسبورى ، عائدا) الضوضاء تتزايد . لن يستطيع الشعب أن يصبر أكثر من ذلك

اليزابيث : أترى كيف يتعجلوننى !

شريوسبورى : أنا لا أطاب الا التريث . جرة القلم هذه سوف يترتب عليها مصير سعادتك واستقرارك مدى الحياة. لقد ترددت سنين طويلة ، فلا تندفعى لمجرد تحمس عابر . عودى الى سكينة نفسك وانتظرى الساعة الملائمة .

بورليج : تمهلى وترددى وسوفى الى أن يجتاح المملكة سعير الفتنة ، أو بالأحرى الى أن تتمكن غريمتك من قتلك . ثلاث مرات كتب الله لك فيها السلامة . واليوم كانت الضربة أدنى الى الخطر من سابقاتها . ان الاعتماد على معجزة جديدة ، هو أقرب الى التحرش بالشيطان !

شريوسبورى : ان الاله الذى رعاك أكثر من مرة ، والذى وهب اليوم كهلا مثلى من القوة طاقة تسمح له بأن يوقف هذا الخبال ، لهو جدير بأن تفوضى اليه أمرك . أنا لا أريد أن أردد الآن صوت العدالة ، فلن يتسنى لك الاستماع اليه وسط هذه العاصفة . ليس لدى الا كلمة واحدة أقولها لك : ان فرائصك ترتعد أمام مارى ستيوارت وهى حية ، بينما هى

ماری ستیوارت الميتة ، ماری ستیوارت المفصول عنقها ، هى التى يحق لك أن ترهبى جانبها . انها سوف تبعث من لحدها متوثبة ، كما لو كانت الهة من آلهة أساطير الفتنة ، أو روحا هائما يسعى للانتقام فى أنحاء مملكتك ، ويحول عنك قلب شعبك . ان الانجليز يبغضونها الآن عن جبن ، ولكن اذا ما أخذتهم الشفقة عليها ورثوا لحالها ، تبخرت من أذهانهم صورة العدوة المناهضة لك فى العقيدة ، وحلت محلها صورة سليلة ملوكهم ، ضحية الحقد والحسد . عند ذلك تلمسين الفارق بسرعة . طوفى بأرجاء لندن عقب تنفيذ الحكم ، واظهرى أمام هذا الشعب الذى يتهافت عليك فى تحمس بالغ ، فستجدين نفسك أمام انجلترا جديدة غير تلك التى عرفتها ، وقد زالت عنك هذه الهالة التى كانت رمزا للعدالة والتى اجتذبت اليك القلوب ، وحل محلها الرعب ، ذلك الظل الملازم للطغيان ، وأخذ يتقدم ركبك فى كل اتجاه ويفسح لك الطريق فى كل صوب ، ويخلى الشوارع التى تجتازينها من كل عابر سبيل ، اذ ذاك تكونين قد وقعت فى خطأ يتعذر علاجه . فأى رأس ذلك الذى يصبح بمعزل عن الخطر ، اذا ما هوى رأس مارى ؟

اليزابيث : انى لآسفة يا شريوسبورى ، لأنك أنقذت اليوم حياتى ، وحولت عن صدرى خنجر القاتل .. فلو لم تفعل ، لكانت هذه نهاية الصراع ، ولخلدت الآن للراحة الابدية فى قبرى ، آمنة شبح القلق ، منزهة عن أية زلة . صدقنى ، لقد سئمت الحياة كما سئمت الحكم . يجب أن تختفى

احدانا من الوجود . هذه هى الحقيقة ، وما هى بخافية على ، فلم لا أكون أنا التى تختفى ؟ انى أترك لشعبى حرية الاختيار ، وأرد اليه سلطته . الله يعلم أنى ما عشت لنفسى ، بل لرفاهية شعبى ، فاذا كان الشعب يرجو من وراء ستيوارت الفاتنة - أو من ملكة تصغرنى سنا - أياما أسعد من هذه ، فأنا متنازلة عن طيب خاطر عن هذا العرش ، مستعدة للعودة الى العزلة والسكون فى (وود ستوك) حيث قضيت أيام شبابى القاتمة . ورغم بعدى عن صولة الدنيا وبريقها الزائف ، كنت ألمس فى قرارة نفسى عظمتى الحقيقية . انى ما خلقت للحكم ، فالحاكم هو من يستطيع أن يحتفظ بشدة مراسه ، أما أنا فقلبى يستسلم للشفقة أحيانا . لطالما سعدت بحكم هذا الشعب ، اذ لم تك لى غاية سوى اسعاده . ولكن أعباء ملكى تفرض على لأول مرة ضرورة لاقبل لى بها ، وانى لأشعر الآن بضعفى .

بورليج : أكون خائنا لواجبى ووطنى اذا ما لزمت الصمت أكثر من ذلك ، كلما سمعت منك هذه العبارات التى لا تليق بجلالتك . تقولين انك تحبين شعبك أكثر من حبك لنفسك . اذن ، برهنى الآن على ذلك . لا تبحثى عن راحة قلبك وتتركى المملكة للعواصف التى تناوئها . فكرى فى الخطر الذى تهددنا به الكنيسة . هل يجب أن تعود الينا العقائد الرجعية الخاطئة بعودة ستيوارت هذه ، وأن تعود الى الكهنة سلطتهم ، وأن تغلق شريعة البابا أبواب كنائسنا وتخلع ملوكنا ؟ ان سلامة أرواح رعاياك تتعرض للخطر ، وعلى نتيجة تصرفك تتوقف

نجاتهم أو هلاكهم . ليس هذا وقت الشفقة . ان السهر على صالح الشعب هو أسمى ما أخذت على عاتقك من مهام . ولئن كان شريوسبورى قد أنقذ حياتك ، فانى أريد أن أنقذ انجلترا ، وهى فوق كل اعتبار .

اليزابيث : دعونى وحدى .. ففى هذا الاشكال الكبير لن أتقبل النصائح أو المواساة من أحدكم . سأطرح الأمر بين يدى الله وسأفعل ما يوحى الى به . انسحبوا ، أيها السادة . **(الى دافيسون)** أما أنت يا دافيسون ، فلا تبتعد ، سأناديك ثانية . **(يخرج اللوردات ، يبقى شريوسبورى وحده بضع لحظات أمام الملكة وينظر اليها باصرار ، ثم يبتعد ببطء . اليزابيث وحدها .)** أنا أمة الشعب ! يا للعبودية الذليلة ! لقد برمت بتملق هذا الصنم الذى أمقته . متى أتربع على هذا العرش فى حرية تامة ؟ لابد لى من احترام الرأى العام ، وعلى أن أبتغى مديح الجماهير ، وأعمل على ارضاء هؤلاء الرعاع الذين لا يميلون الا للدجالين .. فليس بالملك الأصيل من يسعى الى استجداء الاعجاب .. ليس ملكا الا من كان فى غنى عن أى تأييد . ما الذى جعلنى أتمسك بأهداب العدالة؟ ما الذى حملنى طيلة هذه السنين على كراهية الاستبداد ؟ لقد قيدت نفسى بنفسى ، والمثل التى أعطيتها هى التى تنقلب ضدى وتعمل على ادانتى !.. لو أنى كنت طاغية ، لتمكنت من اراقة الدم الملكى دون ملامة أو عتاب . ومع ذلك ، فهل يرجع لى أنا الفضل فى اختيار هذا الطريق ؟ انها القوة القهارة التى تغلب الملوك انفسهم على امرهم هى التى فرضت على أن

أتمسك بهذه الفضيلة . ان الأعداء يحيطون بى وينازعوننى عرشى . كل ممالك القارة تسعى الى هلاكى : البابا يصب على لعنته .. فرنسا تخوننى فى نفس الوقت الذى تعاهدنى فيه على الاخوة !.. أسبانيا تتأهب لحرب بحرية طاحنة . أنا المرأة التى لا حول لى ، أحارب عالما بأسره !.. على أن أدارى بالفضائل السامية ضعف حقوقى الشرعية ، وأن أستر العار الذى وصمنى به أبى نفسه دون سواه . ولكن هيهات لى أن أفلح فى اخفائها ، فحنق الأعداء لا يفتأ ينبشها ، وهو لايكف عن مواجهتى بشبح ستيوارت هذه الذى يتوعدنى دائما ، لا ! لابد لى من وضع حد لهذا الجزع . سيهوى رأس الهة الفتنة هذه التى تنشر الفزع ، هذه الروح الشريرة التى ربط القدر بينى وبينها . كلما منيت نفسى بمتعة أو أمل ، تعثرت فى طريقى بهذه الأفعى التى تنتزع منى عشيقى وتسلبنى خطيبى . كل مصيبة تصيبنى اسمها مارى ستيوارت . عندما تختفى من عداد الاحياء ، أصبح حرة طليقة . (**سكوت**) بأى زهو كانت تنظر الى ، كما لو كانت تريد أن تصرعنى بنظراتها ! أيتها الفاجرة ! لدى أسلحة أشد فتكا ، ستذيقك الموت ، وهكذا أنفض يدى منك . أنا ابنة الزنا !؟ يالك من شقية ! سأظل هكذا ، طالما أنت حية تسعين ، ما أن أجهز عليك ، حتى يبطل الشك فى مولدى ومحتدى . بمجرد أن تعجز انجلترا عن الاختيار والمفاضلة ، سأصبح شرعية المولد (**توقع بسرعة وعزم ثم تترك القلم يسقط من يدها وتتراجع فى حركة ارتياع . بعد فترة سكون ، تدق**

الجرس الى دافيسون الذى يدخل) : أين بقية النبلاء ؟

دافيسون : ذهبوا لتهدئةالشعب ، ما أن ظهر شريوسبورى حتى سكنت الغوغاء فورا ، وصاح الشعب : « هذا هو ! ها هو ذا ! انه هو الذى أنقذ حياة الملكة ! استمعوا اليه ! هذا أرفع رجال انجلترا قدرا على الاطلاق ! » ، وعندما تكلم النبيل « تالبوت » ، فأنحى باللوم على الشعب لاندفاعه ، ولكن فى كثير من الرقة والحزم والاعتداد ، حتى هدأ الجميع وغادروا الميدان .

اليزابيث : أيها الشعب المتقلب ، الذى تتنازعه جميع الأهواء ! الويل لمن يتكىء على هذا الغصن الرخو ! حسن يا دافيسون ، يمكنك أن تنسحب . **(وبينما هو يبتعد)** خذ هذه الصحيفة ، انى أعيدها اليك .

دافيسون : (ينظر الى الورقة فيقشعر بدنه) مولاتى ! انها موقعة ؟ هل قررت ؟..

اليزابيث : كان على أن أوقعها ، فوقعتها . ان قطعة من الورق لاتحسم شيئا ، كما أن مجرد التوقيع لا يقتل .

دافيسون : يا صاحبة الجلالة ، ان توقيعك على هذه الصيغة معناه البت فى الموضوع . هذه الصحيفة هى بمثابة أمر لرجال الشرطة بأن يتوجهوا على عجل الى قصر (فازرنجهاى) حيث ملكة اسكتلندا ويعلنوها بحكم الاعدام ، ثم يقوموا بتنفيذه عندالشروق ! هذا أمر لا سبيل الىالرجوع فيه . اذا سلمت هذه الصحيفة ، فعلى مارى ستيوارت العفاء !

اليزابيث : أجل يا سيدى ، لقد وضع الله مقاديره بين يديك . سله أن يلهمك الصواب بحكمته الواسعة . انى أتركك لمشاغلك . **(تهم بالخروج)**

دافيسون : كلا ، يا صاحبة الجلالة ، لاترحلى دون أن توضحى لى رغبتك . أيوجد بين مهامى ما هو أدق من تنفيذ أوامرك ؟ ما الذى يتعين على أن أفعله بحكم الاعدام هذا ؟

اليزابيث : عنوانه يكفى لارشادك .

دافيسون : أتريدين اذن أن يأخذ مجراه ، الى التنفيذ ؟

اليزابيث : أنا لم أقل هذا ، وانى لأرتعد لمجرد هذا الخاطر .

دافيسون : أتريدين أن أحتفظ به بعض الوقت ؟

اليزابيث : على أن تتحمل التبعة ، وتكون مسئولا عن النتائج .

دافيسون : أنا ؟ يا الهى ! مولاتى ، صارحينى بما استقر عليه رأيك .

اليزابيث : لا أريد بعد الآن أن أسمع شيئا عن هذا الموضوع !

دافيسون : قولى كلمة واحدة لكى ..

اليزابيث : لقد قلتها . لا تصدعنى أكثر من ذلك .

دافيسون : انك لم تقولى لى شيئا ، يا صاحبة الجلالة .

اليزابيث : **(ضاربة الأرض بنعليها)** كفى .

دافيسون : حلمك يا مولاتى . انى أشغل هذا المركز منذ شهور قليلة . وما زلت حديث العهد بلغة الملوك والبلاط .

لا تضنى على بالكلمة التى تحدد مهمتى (**يقترب منهـا متوسلا . تدير له ظهرها ، ياتى بحركات تنم عن يأسه ثم يقول بلهجة حاسمة**) استردى هذه الورقة ، انها تحرق يدى . اعهدى الى غيرى بهذه المهمة .

اليزابيث : انهض بمقتضيات عملك . (**تخرج**) .

دافيسون : انها ترحل ، وتتركنى فى هذا الغموض المؤلم!.. ما الذى ينبغى أن أفعله ؟ أيتعين على أن أحتفظ بهذه الصحيفة أم أقوم بتسليمها ؟ (**الى بورليج الذى يدخل !**) أنت الذى عينتنى فى هذا المركز الذى أشغله . اعفنى منه . لقد قبلته دون أن أفهم مقتضياته . مكانى ليس هنا .

بورليج : ما الذى حل بك أيها السيد ؟ عد الى ثباتك . أين الحكم ؟ هل استدعتك الملكة ؟

دافيسون : لقد تركتنى وأنا أتميز غيظا . زودنى بنصائحك . كن فى عونى . ها هو الحكم ، مذيل بتوقيعها !

بورليج : مذيل بتوقيعها ؟ هاته . هاته .

دافيسون : لا أملك هذا الحق .

بورليج : كيف ؟

دافيسون : الملكة لم توضح لى بعد ..

بورليج : لم توضح لك !؟ وماذا بعد توقيعها . اعطنى اياه.

دافيسون : أيتعين على أن أعمل على تنفيذه ، أم لا ؟ يا الهى ، أنا لم أعد أدرى ..

بورلبيج : (أشد تلهفا) بل عليك أن تعمل على تنفيذه حالا . اعطنى اياه . اذا أحجمت عن ذلك ، ضيعت نفسك . **(ينتزع منه الورقة ويخرج) .**

دافيسون : ماذا تفعل ؟ انتظر . انك أنت الذى تضيعنى !

الفصل الخامس

المنظر الأول

نفس منظر الفصل الأول . فى قصر (فازرنجهاى) . كنيدى متشحة بالسواد ، مكدودة النظر ، فريسة لألم عاصف دفين ، منهمكة فى تغليف بعض الأوراق والرسائل . انها تتوقف أحيانا عن عملها وتستسلم لحزنها . تلوذ بالصلاة . ((بوليه)) و ((درارى)) ، وهما أيضا فى ملابس الحداد ، يدخلان . ويتبعهما عدد وافر من الخدم يحملون أوانى ذهبية وفضية : مرايا ولوحات من الرسوم ، وطائفة أخرى من الاشياء الثمينة يكدسونها فى مؤخرة الغرفة . يسلم ((بوليه)) الى المرضع علبة مجوهرات ومعها ورقة يفهم من اشارته اليها انها قائمة تتضمن الاشياء المسلمة . مرأى هذه التحف يضاعف من الم كنيدى . انها غائرة فى أعماق المحنة . يبتعد الآخرون جميعا فى صمت . يدخل ((ملفيل)) .

كنيدى : ملفيل ! يا الهى ، هذا أنت ! كان مقدرا لنا أن نرى بعضنا البعض ثانية !

ملفيل : أجل ، يا عزيزتى كنيدى ، لقد أراد الله لنا ذلك .

كنيدى : بعد فراق طويل أليم .

ملفيل : اننا نلتقى فى ظروف بالغة القسوة .

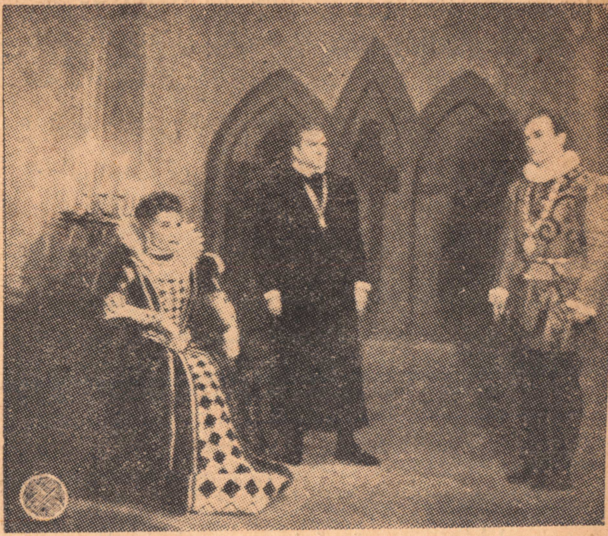
كنيدى : يا الهى ! لقد حضرت ..

ملفيل : حضرت لأودع مليكتنا الوداع الأخير .

كنيدى : لقد سمحوا لها فى النهاية أن ترى أتباعها قبل موتها . أيها العزيز ملفيل ، أنا لا أجد فى نفسى رغبة فى سؤالك أو التحدث اليك عما قاسيناه منذ أن فرقوا بيننا . أكان لزاما علينا أن نعيش حتى يطلع علينا هذا اليوم ؟

ملفيل : يجب علينا أن نسيطر على أعصابنا . ان حياتى لن تصبح الا حدادا متواصلا ، حتى تحين ساعتى . ولكنى اليوم بالذات لا أريد أن أستسلم للألم . عدينى بأن تكونى شجاعة ، علينا أن لا نبلغ حد اليأس . فلنتجلد ولنظهر أمام الملكة بوجوه تخفف عنها آلام نفسها .

كنيدى : أنت بعيد عن الحقيقة يا ملفيل . لا تعتقد أنها فى حاجة الى معونتنا لكى تواجه الموت بثبات ، بل انها ستكون — على العكس — قدوتنا الى الطمأنينة . دع عنك هذه المخاوف . انها ستموت كما يجب أن تموت الملكة .



(اليزابيث وليسستر وبورليج)
اليزابيث : تكلم . زد جرمك خطرا بمحاولة انكاره .
(الفصل الرابع)

ملفيل : كيف استقبلت خبر تنفيذ الحكم فيهـا ؟ يقولون انها لم تكن متأهبة له .

كنيدى : هـذا صحيح . كان المفروض أن « مورتيمير » سيعمل الليلة على انقاذنا ويذهب بنا بعيدا عن هنا . وقد ظلت الملكة ترقب الصباح ، وهى موزعة بين القلق والأمل ، وعلى حين فجأة سمعنا هرجا فى أنحاء القصر ، وقرعا على الأبواب ، فحسبناهم جاءوا لانقاذنا . هنا دب فينا أمل كبير ، وانبعثت

فى أجسادنا الحياة من جديد ، واجتاحتنا بكل قوتها . ثم فتح الباب ، فدخل بوليه ، وأخبرنا أن العمال قائمون بنصب المقصلة . **(بعد فترة صمت)** فى هذه اللحظة الحاسمة التى تودع فيها النفس أحلام الدنيا لتستقبل حياة الخلود ، من الله علـى مـولاتى بقلب مفعم بالعـزم ، وزودها بفيض من الايمان ، فلم يبد عليها أثر للارتباك . لم تنطق بكلمة استرحام . وعندما سمعت بخيانة « ليسستر » الدنيئة ، وبالنهـايه القاسية التى لقيها « مورتيمير » الكريم النفس ، وباكتئاب « شريوسبورى » العميق ، عندئذ فقط ، أجهشت بالبكاء !

ملفيل : أين هى الآن ؟ هل أستطيع أن أراها ؟

كنيدى : لقد ظلت بقية الليل تردد الصلاة . ثم شرعت فى الكتابة لبعض أصدقائها الأوفياء ، وأخذت بعد ذلك فى كتابة وصيتها . انها الآن تحاول أن تستريح . هذا النعاس الأخير قد يمدها بشىء من القوة ، لو أصابت منه حظا .

ملفيل : من هم الذين بجوارها ؟

كنيدى : وصيفاتهـا وطبيبهـا . **(تدخل مرجريت كورل ووصيفات مارى ستيوارت)**

كنيدى : ماذا هنالك يا سيدتى ؟ هل استيقظت الملكة ؟

مرجريت كورل : وارتدت ملابسها ، انها تسأل عنك .

كنيدى : أنا ذاهبة اليهـا . **(الى ملفيل الذى يريد أن يصطحبها)** : انتظر حتى أمهد لزيارتك . **(تخرج)** .

مرجريت كورل : بينما كنت أهبط درجات السلم ، فتح أحد الأبواب فلمحت .. آه يا الهى !

ملفيل : ماذا لمحت ؟

مرجريت كورل : رأيت جميع جدران الردهة مجللة بالسواد ، وعلى الدرج المكسو بالسواد أيضا رأيت الكتلة الخشبية المعدة للاعدام ، والوسادة والبلطة ، وجمعا من الناس يتزاحم حولها . كان الله بها رحيما ! **(تدخل مارى ، وهى ترتدى ثوبا أبيض على غرار الأثواب التى تلبس فى الحفلات الدينية ، وتحمل فى عنقها قلادة عليها صورة حمل وتتدلى من حزامها مسبحة ، وبيدها تحمل الصليب .. وشعرها متوج بأكليل ، وخمارها مطروح الى الوراء . عند دخولها تصطف النساء على جانبى المسرح ، مستسلمات للبكاء . يجثو ملفيل على ركبتيه) .**

مارى : (فى هدوء العظمة) علام البكاء ؟ أحرى بكن أن تعملن على تخفيف كربى . لقد دنت نهاية آلامى ، وأوشكوا أن ينزعوا عنى الاغلال . ان أبواب سجنى تفتح وروحى تحلق فى انشراح نحو الحرية الابدية . عندما كنت أصبر على مضض على تصرفات لاتليق بملكة عظيمة ، ملكة حرة ، كان هناك ما يدعو حقا الى البكاء . أما الآن فالموت مقبل نحوى ، حاملا لى العون والاحسان ، باسطا أجنحته السوداء فوق كبوتى ليستر عارها . لكأنى قد توجت من جديد ، وعادت لى عظمتى **(تخطو بضع خطوات)** كيف ؟ ملفيل ! أنت هنا ؟

انهض . فقد جئت تشهد النصر الذى انعقد لمليكتك ، لا لتشهد موتها . انك تولينى سرورا ما كنت لأجرؤ على التطلع اليه ، فهكذا لن يستولى أعدائى حتى على ذكراى . ان صديقى ، وأخى فى الله ، سيكون حاضرا ساعة موتى . ملفيل ، أستودعك رغباتى الأخيرة . انى أبارك شقيق زوجى الملك المحافظ على تراث المسيحية ، كما أبارك جميع أفراد البيت الفرنسى المالك ، كذلك أبارك عمى الكاردينال وابن عمى النبيل هنرى دى جيز . كما أبارك البابا خليفة يسوع ، وصاحب الجلالة الكاثوليكية ملك أسبانيا الذى حاول أن ينقذنى وأن يثأر لى . لقد شملت وصيتى جميع أسمائهم ، فعساهم لا يستنكفون من هديتى المتواضعة ، وليتقبلوها على أنها كل ما أملك أن أعبر به عما أكنه لهم من المحبة . **(ملتفتة نحو خدمها)** لقد أوصيت أخى فى الملك ، جلالة ملك فرنسا ، بكم خيرا ، وسيعنى بأمركم ، ويمنحكم موطنا جديدا . لا تبقوا فى انجلترا . لا أريد أن يشبعوا نهمهم هنا بمحنتكم . اقسموا لى بهذه الصورة ، صورة المسيح المصلوب ، على أن ترحلوا عن هذا البلد ، بمجرد أن أرحل عن هذا العالم .

ملفيل : أقسم على ذلك باسم الجميع .

مارى : لقد وزعت عليكم هذا القدر الضئيل من أملاكى الذى أستطيع أن أتصرف فيه . وانى لأرجو أن تحترم رغباتى الأخيرة . عزيزتى جان ، أيتها الوفية ، انك ستعصبين عينى بهذا المنديل عندما تحين الساعة . هذه آخر خدمة

أطلبها منك . تعالوا جميعا ! وتقبلوا وداعى الأخير . **(تمد يديها فيوالى الجميع تقبيلها وهم يتهافتون عند قدميها)** وداعا ، وداعا لكم جميعا ، وداعا سرمديا . **(تحول وجهها . النساء يبتعدن)** لقد أديت واجباتى الدنيوية ، وأرجو أن أترك هذا العالم وليس فى عنقى أى دين لبنى الانسان . ليس هناك الا شىء واحد ، يا ملفيل ، يعكر على صفوى . بعد قليل ، سأقف بين يدى القاضى الأعلى قبل أن أعترف بذنوبى . لقد حالوا بينى وبين راهب على ديانتى ، وقد رفضت أن أتقبل القربان الأخير من يد ملحدة . أريد أن أموت على دين كنيستى ، فهى وحدها تجلب راحة الضمير .

ملفيل : لا تجزعى ، فالسماء تتقبل من الصلاة صدقها وعمقها . ثم أن الظلم لاينال الا من الجسد ولا يحول دون وصول العبادة الى الله . قد تقصر الحياة ، أما الايمان فلابد أن يبلغ غايته .

مارى : أسفاه يا ملفيل ، ان للقلب طاقة محدودة ، ولابد للايمان من دعامة على هذه الأرض يعتمد عليها حتى يبلغ صداه عنان السماء . هذه الدعامة هى الكنيسة المقدسة ، الكنيسة الموقرة ، فهى التى تحمل الرسالة . انهم يسمونها بالكاثوليكية العالمية ، لأن ايمان الجماعة يشحذ ايمان الفرد ، وعندما يهم آلاف المؤمنين بالصلاة جماعة ، يتأجج القلب وتحلق الروح الى السماء . لك أن تتصور المحراب وقد نسقت جوانبه ، والشموع وقد أرسلت شعاعها ، والأجراس

وقد دوى رنينها ، والبخور وقد انطلق شذاه ، والأسقف وقد تناول الكأس المقدسة وأخذ يباركها ليناول منهـا القربان المقدس ، فيسجد المؤمنون خاشعين بين يدى الله . أسفاه ، أنا وحدى المقصية عن رحمته ، فبركة السماء لا تخترق ظلام سجنى .

ملفيل : بل لقد اخترقته فعلا ، وهى أدنى ما تكون منك . لا تشكى فى قدرة الله ولا تيأسى من رحمته ، فالغصن الجاف قد تعود اليه خضرته بعد أن يذوى ، والذى بيـده أن يفجر النبع تفجيرا من الحجارة الصماء ، لن تعجز قدرته على تهيئة محراب لك بين جدران هذا السجن . **(يتناول كأسا ويضعها فوق المنضدة)** .

مارى : أفهم ما تعنى يا ملفيل . لا توجد هنا كنيسة ، ولا راهب ، ولا قربان ، ولـكن المسيح يقول : « اذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى ، فهناك أكون فى وسطهم » . ان صفاء قلبه وقدسية حيـاته هى التى تجسدت فى مقام الراهب وجعلته نائبـا عنـه . ملفيل ، أنت بمثـابة راهب ، أرسلته الى السماء . أود أن أعترف بذنوبى وأسمع منك كلمة تشفع لى .

ملفيل : مولاتى ، لقـد استجاب الله لدعوتك الحارة وأتى بالمعجزة لخلاص روحك . انه حاضر بيننـا . **(ينزع عنـه رداءه ، ويبرز لمارى كأسا ذهبية ، يخرج منهـا قربانا)** لكى أتلقى اعترافك الأخير ، لـكى أزودك براحة النفس الأبدية ،

اندمجت فى سلك الرهبنة وتلقيت تعاليمها السبع ، وهـذا الزاد المقدس قد اختصك به البابا نفسه .

ماري : اذن ، فحتى وأنا على شفا الموت ، تأبى السماء الا أن أموت منشرحة الصدر ! فكما يهبط الاله من خلال السحب الذهبية ، وكما انتزع الملاك الحوارى من أغلاله ، أقبل مبعوث الاله جلت قدرته واجتـاز أبواب السـجن الموصـدة ـ فلا المزاليج بعائقة ولا رماح الحراس بحائلة دون وصوله الى كنف السجن ـ فغمره بنوره الساطع . واذن فقد لاحت لى رؤيتك حيثما فشل جميع من أرادوا لى النجاة من أهل هذه الدنيا ، أنت يا من كنت فيما مضى خادما لى ، وأصبحت الآن خادما للعلى القدير ونائبه الاقدس ، انى أنا التى تخر الآن ساجدة عند قدميك .

ملفيل : (**يمنحهـا اشارة الصليب**) باسم الاب والابن والروح القدس ! أيتها الملكة مارى ، هل حاسبت نفسك ؟ أتقسمين على أن تعترفى بالحقيقة كلها أمام رب الحقيقة ؟

مارى : ان قلبى وما حوت جوانحه ليهرع اليه مستسلما .

ملفيل : بعـد أن تناولت آخر قربان ، ماهى الخطايا التى ارتكبتهـا ؟

مارى : كان قلبى يطفح بالحقد وينزع الى الانتقام ، كنت أطمع فى عفو الاله ولا أعرف كيف أصفح أنانفسى عن أصدقائى !

ملفيل : هل تنوين أن ترحلى عن هـذه الدنيا بلا حقـد أو ضغينة ، وهل أنت نادمة على ما سلف منك ؟

ماري : بنفس الولاء الذي أطمع به في عفو الله .

ملفيل : ألديك خطايا أخرى تريدين الاعتراف بها ؟

ماري : بل هناك خطيئة قديمة جدا . طالما آخذت نفسي عليها ، وما زالت تروعني وتتحفز للحيلولة بيني وبين السماء في هذه اللحظة الخطيرة . لقد تغاضيت عن مقتل زوجي ووهبت قلبي ويدي لقاتله . لقد كفرت عن هذه الجريمة بكل وسائل التكفير وكبح النفس ، ولكن ضميري لم يبرأ بعد من التبكيت .

ملفيل : ألم ترتكبي بعض ذنوب أخرى ، لم تعترفي أو تكفري عنها بعد ؟

ماري : لقد بحت بكل شيء .

ملفيل : لا تنسي أنك على وشك الوقوف بين يدي من لا تخفى عليه خافية . انك لم تذكري لي شيئا عن الجريمة التي هي السبب في ادانتك . اتهامك بالتآمر مع « بابنتجتون » . لقد دفعت حياتك في هذه الدنيا ثمنا لهذه الفعلة ، فاياك أن تدفعيها بسببها مرة أخرى في الآخرة .

ماري : أنا على أهبة الاستعداد لدخول الآخرة ، ان هي الا لحظة أقف بعدها بين يدي أعدل القضاة . أكرر عليك : اني قد بحت بكل شيء .

ملفيل : فكري في الامر جيدا ، فالقلب يضل أحيانا . ربما تكونين قد تحاشيت - بلباقة - التورط في كلمة تحسب عليك ، وتكونين مع ذلك قد ساهمت بارادتك في الجريمة .

ماري : لقد استنجدت بجميع الامراء ليخلصوني من الاسر، ولكني لم أسع مطلقا – لا بالفعل، ولا بالقول، ولا بالارادة – الى قتل غريمتي .

ملفيل : اذن فقد كذب وكلاؤك ؟

ماري : لقد قلت الحقيقة . والله شهيد على ما يضمرون .

ملفيل : اذن فأنت تصعدين الى المقصلة، وأنت مؤمنة ببراءتك ؟

ماري : من فضل الله على أني سأكفر بهذه الميتة عن الجريمة التي اقترفتها .

ملفيل : (**يباركها**) اني بموجب السلطة التي تخول لي حق الربط والحل، أغفر لك خطاياك، وسيكون حسابك عسيرا أو يسيرا على قدر ما تضمرين . (**يقدم لها القربان**) تناولي هذا القربان الذي يرمز الى الفداء (**يتناول الكأس، ويباركها في صمت ثم يقدمها الى ماري**) تناولي هذا الدم الذي أريق ليفتديك . (**تتناول الكأس التي يتولى ملفيل فيما بعد اعادتها الى مكانها . تسمع جلبة خلف الباب، يعود ملفيل الى تستره ويتجه نحو الباب . تظل ماري ستيوارت راكعة، تصلي في صمت . ملفيل عائدا**) : ما زال أمامك كفاح شاق يجب أن تتحمليه . أتشعرين أن لديك من القوة ما يجعلك تقاومين كل نزعة من نزعات الحسد أو الضغينة ؟

ماري : أنا لم أعد أرهب شيئا، لقد ضحيت بحبي وحقدي في سبيل الله .

ملفيل : استعدى اذن للقـــاء اللورد بورليج والكونت دى ليسستر . ها هما (**يدخل بورليج وليسستر وبوليه . يظل ليسستر فى المؤخرة ، يتقدم بورليج بينه وبين الملكة**) .

بورليج : سيدتى ، لقد جئت لأتلقى أوامرك الاخيرة . لقد أوصت الملكة بأن لا يرفض لك طلب ما دام عادلا .

مارى : وصيتى تتضمن رغباتى الاخيرة . لقد عهدت بهـا الى الفارس « بوليه » ، أرجو أن تنفذ بأمانة .

بوليه : أعدك بذلك .

مارى : بما ان جثمانى لن يتاح له أن يرقد فى أرض مباركة، فاسمحوا لخادمى الامين « ملفيل » أن يحمل قلبى وحده الى فرنسا . انه لم يبرحها قط .

بورليج : ليكن ما تريدين .

مارى : قل لملكة انجلترا ، انى أغفر لهـــا موتى ، ومن كل قلبى ، واننى آسفة على تهــورى بالامس . فليحفظها الله وليمتعها بملك سعيد .

بورليج : أتصرين دائما على عدم حضور كبير الكهنة ؟

مارى : أنا على وفاق تام مع الله . أيها السيد بوليه ، لقد سببت لك ، بلا عمد ، متاعب كثيرة . دعنى أؤمل انك لن تذكرنى بسوء .

بوليه : (**مصافحا اياها**) ان الله معك ! (**تدخل كنيـدى والنساء الاخريات ، وقد استبد بهن الفزع . ويتبعهن الضابط**

الادارى الذى يمثل التاج ، حاملا فى يده عصا رفيعة بيضاء . ومن ورائه تلمح من فتحة الباب رجالا شاكى السلاح) .

مارى : ماذا دهاك يا جان ؟ هذه ساعة الموت قد حلت ، يجب أن نفترق . وداعا وداعا . أنت يا ملفيل الوفى وأنت يا جان ، استصحبانى الى هذا الطريق الاخير الذى قدر لى أن أسلكه . أيها السيد ، لا تحرمنى هذه السلوى .

بورليج : لا يحق لامرأة ، أيا كانت ، أن تصعد درج المقصلة . ان عويلها وأنينها . .

مارى : أنا أعلم برباطة جأش جان . كن طيبا يا سيدى ، لا تحل بينى وبينها . لقد حملتنى بين ذراعيها عندما جئت الى هذا العالم . لن يترفق بى أحد مثلها وهو يقودنى الى الموت .

بوليه : (**الى بورليج**) حقق لها هذا الرجاء .

بورليج : ليكن !

مارى : الآن ، تنقطع صلتى بهذا العالم . (**تتناول الصليب وتقبله**) أيها المسيح المنقذ ، كما بسطت ذراعيك على الصليب ، ابسطهما الآن لتلقانى .

تخرج ، يتقدمها الضابط الادارى ، ويحيط بها ملفيل وكنيدى ، وفى أثرهم بورليج وبوليه ، بينما ينظر اليها الآخرون وهم ينتحبون ، الى أن تتوارى . ثم يخرجون من البابين الآخرين . يظل ليستر وحده على المسرح . ومن فرط يأسه وشدة انهياره ، يهوى جاثيا على ركبتيه .

المنظر الثانى

فى جناح الملكة ، تدخل اليزابيث من أحد الابواب الجانبية ، حركاتها ومشيتها تنم عن اضطرابها الشديد .

اليزابيث : لا أحد بعد . ما من أخبار ، ألا يقبل الليل ؟ هل توقفت الشمس عن دورانها فى السماء ، هل أعانى طويلا هذا العذاب ؟ ترى هل قاموا بالتنفيذ أم لا ؟ انى لأخشى كلا الامرين ولا أجرؤ على السؤال ! أنا لم أر ليستر ولا بورليج المنوط بهما تنفيذ الحكم ؟ هل رحلا عن لندن ؟ واذا كانا قد رحلا عنها ، فكل شىء قد أخذ الآن مجراه ، ولم أعد أملك وسيلة أعطل بها سير الاقدار . **(يدخل أحد الحجاب)** هل عدت بمفردك ! أين هم النبلاء ؟

الحاجب : الكونت دى ليستر ووزير المال ..

اليزابيث : اين هما ؟

الحاجب : لم يستطع أحد أن يدلنى على ذلك . ولكن يبدو أنهما تركا المدينة خفية قبل بزوغ النهار .

اليزابيث : أنا ملكة انجلترا ! اذهب ، ونادنى .. لا ! بل ابق ! لقد ماتت وأصبحت فى النهاية حرة . اذهب وقل لوكيلى أن يحضر حالا **(يخرج الحاجب ويدخل شريوسبورى)** مرحبا بك ياشريوسبورى . أى نبأهام أتى بك فى هذه الساعة ؟

شريوسبورى : مولاتى ، لقد دفعتنى الغيرة على سمعتك والقلق على مجدك ، فذهبت اليوم الى الحصن الذى سجن فيه «كورل» و « نو » ، وكيلا مارى ، لكى أتبين مدى الحقيقة

فيما أدليا به فى شهادتيهما . وهناك شاهدت مشهدا رهيبا . كان « كورل » مستلقيا فى زنزانته ، متهدل الشعر ، زائغ البصر ، وما أن عرفنى ، حتى ارتمى عند قدمى وأخذ يقبلهما وهو يتلوى على الارض ويصيح فى يأس . ثم استحلفنى أن أصارحه بالحقيقة ، وهو لا يحول بصره عن عينى . كانت إشاعة الحكم على مارى بالاعدام قد تسربت الى داخل سجنه . وعندما صارحته بأنه قد حكم عليها بناء على ما جاء فى أقواله ، أخذ يضرب صدره بغضب ، ويجأر بأنه ارغم على تزوير شهادته ، وأن الرسائل الموجهة الى « بابنجتون » لم تك حقيقية وان الملكة لم تقم باملائها .

اليزابيث : لقد اعترفت انت نفسك بأنه كان خارجا عن وعيه .. ان هراء المخبول لا يقيم الدليل !

شريوسبورى : مولاتى ! دعينى إصل الى اقناعك . لا تتهورى بلا داع .. اصدرى أمرا باعادة التحقيق !

اليزابيث : انى أجيبك الى طلبك ، يا كونت ، بما أنك تلح فى طلبه .. ولكن لا تحسب أن النبلاء قد حققوا هذه القضية بلا ترو . فليعاد التحقيق ما دام فى الوقت متسع لذلك . ان شرف الملوك لا يصح أن يلوث ولو لمجرد ظل من الشك . **(الى دافيسون الذى يدخل)** أين الحكم الذى سلمته اليك ؟

دافيسون : الحكم ؟

اليزابيث : الذى سلمته اليك البارحة لتحتفظ به ..

دافيسون : لأحتفظ به ؟

اليزابيث : كان الشعب يلح على لأوقعه ، فوقعته ارضاء

له . كنت مرغمة على ذلك وأودعته لديك حسما للموقف .

شريوسبورى : هاته . فسيعاد التحقيق من جديد .

دافيسون : يعاد التحقيق ؟

اليزابيث : ما هذا التردد . أين تلك الورقة ؟

دافيسون : (يائسا) أنا هالك .

اليزابيث : لا أريد أن يتطرق الى ذهنى انك ..

دافيسون : أنا هالك لا محالة ، انها لم تعد فى حوزتى .

اليزابيث : كيف ؟

شريوسبورى : يا الهى !

دافيسون : لقد استحوذ عليها « بورليج » منذ البارحة .

اليزابيث : أيها التعس ! أهـــذه طاعتك لى . ألم آمرك بالاحتفاظ بها ؟

دافيسون : انك لم تأمرينى بذلك ، يا صاحبة الجلالة .

اليزابيث : أتتهمنى بالكذب ، أيهـــا الشقى ! ومتى أمرتك بتسليم هذا الحكم الى بورليج ؟

دافيسون : لم يك أمرا مباشرا ، يا مولاتى ، ولكن ..

اليزابيث : اذن ، فهكـــذا تجترىء على تأويل كلامى !.. الويل لك كل الويل اذا أدى تصرفك هذا الى ما لا تحمـــد عقباه . ستدفع حياتك ثمنا لحماقتك . هل رأيت يا كونت كيف يتخطون أوامرى ؟

شريوسبورى : أرى ذلك ، يا مولاتى . اذا كان دافيسون قد تصرف على هذا النحو من تلقـــاء نفسه ، وجبت احالته للمحاكمة أمام مجلس النبـــلاء ، لأنه بذلك يكون قد عرض

سمعتك للعار . (**يدخل بورليج وكنت**) .

بورليج : (**راكعا بساق واحدة**) مد الله فى عمرك ياصاحبة الجلالة ! وجعل مصير كل أعداء انجلترا نفس مصير مارى ستيوارت هذه !

اليزابيث : أجب على سؤالى يا بورليج ! هل تسلمت حكم الاعدام من يدى ؟

بورليج : لا . بل تسلمته من دافيسون .

اليزابيث : وهل سلمه لك دافيسون ، بناء على أمرى ؟

بورليج : لا .

اليزابيث : وقمت بتنفيذه دون أن تقف على ارادتى . لقد كانت الحيثيات سليمة ، وليس فيها ما يؤخذ علينا ، ولكنك لا تملك أن تسبق ارادتى . أنت معزول من البلاط ، بسبب هذه الواقعة . (**الى دافيسون**) أما أنت فسيكون جزاؤك أشد من هذا . فليسوقونه الى الحصن وليكن مصيره الاعدام . يا عزيزى شريوسبورى ، لقد انفردت دون غيرك من المستشارين بالتزام جانب العدالة . أنت منذ الآن صديقى ومرشدى .

شريوسبورى : لا تبعدى عنك خير من تفانى فى خدمتك من أعوانك ، يا صاحبة الجلالة . لا تلقى فى السجون بمن دأبوا على العمل من أجلك ، ومن يلتزمون الآن الصمت من أجلك . بل اسمحى لى أن أضع بين يديك عبء الامانة التى عهدت الى بها منذ اثنتى عشرة سنة .

اليزابيث : لا يا شريوسبوری ، لن تتخلى عنى على هـذه الصورة !

شريوسبوری : معذرة ، فأنا طاعن فى السن ، ولم تعد هذه اليد بالمرونة التى تسمح لها بصك أوامرك الجديدة .

اليزابيث : تريد أن تتخلى عنى بعد أن أنقذت حياتى ؟

شريوسبوری : أنا لم أقم الا ببعض ما وسـعت نفسى يا مولاتى ، بدليل انى عجزت عن انقـاذ أهم جانب فى حياتك . انعمى بحياتك ، اسعدى بملكك ، أتمنى لك التوفيق .. فقد ماتت غريمتك ، لم يعد أمامك ما تخشينه الآن ، وليس أمامك ما تقيمين له أى إعتبار ! (**يخرج**)

اليزابيث : (**الكونت دى كنت الذى يدخل**) على بالكونت دى ليسستر .

كنت : الكونت دى ليسستر يستميحك عفوا . فقد أبحر الى فرنسا .

ستار

تمت